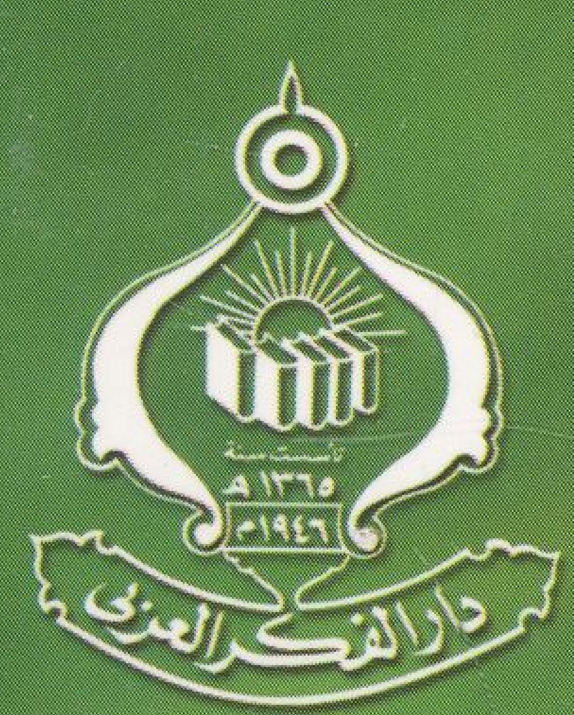
الإمام الجليل

محمد أبو زهرة



زهرة التفاسير



إهـــــــداء٢٠٠٦

المرحوم / علي حسن عبد الكافي

الإسكندرية

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ الإشارة فى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ إلى أولئك الكافرين الذين غرهم غرور الأموال والأولاد فضلوا لفرط اعتزازهم بسلطان المال والعصبية، وفى الإشارة إليهم وهم موصوفون بالكفر المؤكد الذى لا سبيل إلى الشك فيه ولا الريب بيان أن السبب فى العقاب الذى ينزله الله بهم هو هذا الكفر الذى دفع إليه الغرور والاعتزاز بغير الله وبغير الحق. والجملة السامية ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ دالة على عقابهم الشديد يوم القيامة. وقد أكد الخبر بثلاثة مؤكدات:

أولها: الإشارة إلى البعيد بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الدالة على غلوهم فى الكفر، وإيغالهم فيه، وكلما قوى السبب قوى المسبب، وكلما اشتدت الجريمة اشتد العقاب، فهى مَثُلَةٌ للجزاء.

وثانيها: ذكر ضمير الفصل «هم»، فهو يؤكد؛ إذ فيه تكرار لذكر الموضوع الذى يَرِد عليه الحكم، وكل تكرار فيه تأكيد فوق ما يدل عليه من الاختصاص.

وثالثها: التعبير عن العقوبة النارية التى تنزل بهم، بأنهم يكونون وقود النار؛ فإن الوَقُودَ هو الحطب الذى تُحرَق به النار، وأصله من وقدت النار تقد إذا اشتعلت، والمصدر الوُقود، وبالفتح ما يكون به الاتقاد والاشتعال. والمعنى على هذا أن الكافرين يكونون وقود النار؛ أى أن النار يشتد اشتعالها فيهم حتى كأنهم هم مادتها التى بها تتقد وتشتعل. وقرئ ﴿وُقُود﴾[1]، وهذا يكون فيه مبالغة فى شدة احتراقهم، أى أنهم يحترقون بالنار ويسجرون فيها حتى كأنهم الاشتعال لا مادة الاشتعال، ولا من يكوى بهذا الاشتعال.

وإن هذا العقاب هو الذى ينتظر الكفار جميعا، وإن حال منكرى الإسلام فى الإنكار والجحود والغرور بالمال والولد، والعزة بالنفر والعصبية، كحال من سبقوهم، ولذا ينزل بهم ما نزل بأولئك؛ ولهذا قال سبحانه وتعالت آياته:

---

(١) قرأ بها مجاهد والحسن وجماعة (المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥، البحر المحيط ٢/ ٤٥، الدر المصون ٢/ ٢١).

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدأب: العادة والشأن، وأصله من دأب الرجل فى عمل يدأب دأبا ودءوبا إذا جد فيه واجتهد، ثم أطلق الدَّأْبُ على العادة والشأن؛ لأن من يدأب فى عمل ويستمر عليه أمدا طويلا يصير شأنا له، وحالا من أحواله، وعادة من عاداته؛ فهو من باب إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب. وآل فرعون، وهم نصراؤه وأهل حوزته ومعاضدوه، قد استمرءوا الطغيان وألفوه حتى صار الكفر دأبا وعادة وشأنا من شئونهم.

وقد شبه الله سبحانه وتعالى حال الكافرين الذين كفروا بمحمد ﷺ وما جاء به، بحال آل فرعون والذين سبقوا فرعون من الطغاة العتاة القساة المغرورين، وقد كان وجه الشبه فى أمرين:

أولهما: أن الغرور هو الذى دفع إلى الجحود واللجاجة فيه والإصرار عليه، حتى إنهم ليردون الدليل تلو الدليل، وما تزيدهم الآيات إلا كفورا، وما تزيدهم الموعظة إلا عُتوا فى الأرض وفسادا.

وثانيهما: فى الجزاء.

وهنا يرد سؤالان أولهما: لِمَ ذكر آل فرعون، ولم يذكر فرعون؟، والثانى: لماذا نص على قوم فرعون من بين الذين سبقوهم بالكفر والجحود ومعاندة النبيين؟

والجواب عن السؤال الأول: أن ذكر آل فرعون يتضمن ذكر فرعون؛ لأنه إذا كان العناد فى التابع فهو فى المتبوع أشد؛ وفوق ذلك فإن آل فرعون وحاشيته ونصراءه هم السبب فى طغيانه، وهم الذين سهلوا له سبيل الطغيان وضنوا بالموعظة فى إبَّانها، وهم الذين حرضوه على الاستمرار فى الشر والإيغال فيه، فهم اتبعوه أولا، ثم حرضوه على الطغيان ثانيا بمبالغتهم فى مرضاته، واستحسان ما يفعل.

وأما الجواب عن السؤال الثانى، وهو اختصاص فرعون وآله بالذكر، فلأن فرعون كان أقوى الطغاة وأشدهم، وكان أكثرهم مالا، وأعزهم نفرا،

وأكثرهم غرورا؛ أليس هو القائل: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ... ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] أليس هو الذى ذهب به فرط غروره إلى أن يقول فى حماقة ظاهرة: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ... ﴿٣٧﴾﴾ [غافر] ولقد كان مستكبرا يصم آذانه عن سماع الحق حتى لقد قال سبحانه فيه: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴿٣٩﴾﴾ [القصص].

ولقد بين سبحانه وتعالى نتيجة الغرور فى آل فرعون والذين من قبلهم، وهو التكذيب بآيات الله، وقد ترتب على التكذيب نزول العقاب الشديد؛ سنة الله فى الذين كفروا ولجوا ولم يثوبوا إلى رشدهم، وينيبوا إلى ربهم، فقال سبحانه:

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا هو الدأب والعادة، وهو الغرور المُرْدى، وهذه نتائجه التى تجمع بين المغرورين دائما، وهو التكذيب بآيات الله تعالى. وفى هذه الجملة السامية يقرر الله سبحانه ثلاث حقائق ثابتة؛ اثنتان منها تتعلقان بالكافرين المغرورين، وهما: التكذيب بآيات الله تعالى، والعقاب الذى يأخذهم سبحانه وتعالى به؛ والثالثة بيان شأن من شئون الله تعالى جلت قدرته، وهو أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب، كما أنه سبحانه غفور رحيم، وأنه المنتقم الجبار، كما أنه اللطيف الخبير.

فأما الحقيقة الأولى فقد قال سبحانه فيها ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى كَذَّبُوا بالآيات والأدلة التى تثبت رسالات الرسل، وتثبت وحدانية الله تعالى. وأضاف سبحانه الآيات إليه جلت قدرته، للإشارة إلى عظم دلالتها وقوة إثباتها، وأنها آيات الخالق لتعريف خلقه، وأدلة الواحد الأحد لإثبات وحدانيته، ومع ذلك لجوا واستمروا فى غيهم يعمهون.

والحقيقة الثانية: قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يعاقبهم على هذه الذنوب بما يساويها، وبما يقابلها، وعبر عن العقاب بهذا التعبير؛ لأنه يفيد أُمورًا ثلاثة:

أولها: أن الأخذ يفيد الوقوع التام فى سلطان الله تعالى، فهو سبحانه أخذهم كما يؤخذ الأسير، لا يستطيع من أمره فكاكا.

ثانيها: أن التعبير بالباء يفيد أمرين: المصاحبة والمقابلة؛ فهم قد أخذوا مصاحبين ومتلبسين بذنوبهم لم يقلعوا، ولم يتوبوا، بل استمروا على حالهم ملابسين لها ومقترنة بهم، كما تدل على أن العقاب مقابل للذنوب، فهو بدل ببدل، وكما أنهم قدموا الذنب، فليتسلموا العقاب.

وثالثها: أن هذا التعبير فيه إشارة إلى عدل الله سبحانه وتعالى الكامل؛ فالذنب هو الذى ولد العقاب، وهو يماثله تمام المماثلة، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

والحقيقة الثالثة: قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿**وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ وفى ذكر هذا الوصف للذات العلية إشارة إلى شدة العقاب لشدة الجريمة، وإشارة إلى أن العدالة الإلهية تقتضى شدة العقاب؛ لأنه لا يستوى الذين يحسنون والذين يسيئون، ولا يستوى الأخيار والأشرار؛ فإن المساواة هى الظلم فى هذه الحال. ثم فى هذا الوصف للذات العلية تعليم للناس بأن كل فعل يجب أن يكون له جزاؤه ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨**﴾ [**الزلزلة**]. وهذا النص الكريم فوق ذلك يربى المهابة فى النفس، ويجعل كل مؤمن يغلِّب الخوف على الرجاء، فإن الخوف يجعل العابد يستشعر الطاعة دائما ولا يَدل بالعبادة، وتغليب الرجاء يمكن للنفس الأمارة بالسوء أن تسيطر، ويجعل العابد يَدل بعبادته.

﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ اغتر المشركون بأموالهم وأولادهم وقوتهم فى الأرض، فكفروا وعتوْا عتوا كبيرا؛ فبين الله سبحانه وتعالى أنهم سَيُغْلَبون فى هذه الدنيا، وأنهم فى الآخرة سيحشرون إلى جهنم؛ ولذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يقول فيهم هذه الحقيقة فقال سبحانه: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾.

فهذه الآية الكريمة إنذار للمشركين بأن الهزيمة ستلحقهم فى الدنيا، وأن العذاب سيستقبلهم فى الآخرة. وقد أمر الله سبحانه نبيه بأن يواجههم بهذا الخطاب، ولم يوجهه سبحانه وتعالى إليهم؛ لأن أولئك المغترين المفتخرين كانوا يدلّون بقوتهم على النبى ﷺ، ويعتزون بها فى مخاطبته ﷺ، فكانوا يقولون له: ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) ﴾ [سبأ]. وكانوا يأخذون من عزتهم فى الدنيا دليلا على عزتهم فى الآخرة، فكان حالهم كحال هذا العامل الذى حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف] وهكذا الطبيعة الإنسانية إن استغنت طغت فى حاضرها، وغرها الغرور فى قابلها: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق].

وإذا كانوا يجابهون النبى ﷺ بذلك فإنه يكون من المناسب أن يتولى هو الرد، وهو الذى جُرِّدَ من المال والولد، ولا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالى.

وإن ذلك الاغترار كان من المشركين واليهود الذين كانوا يجاورون النبى ﷺ بالمدينة، وقد جابهوا النبى ﷺ بذلك عندما دعاهم إلى الإسلام بعد واقعة بدر التى انتصر فيها المسلمون؛ فإنه يروى أن النبى ﷺ جمعهم فى سوق بنى قينقاع، وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنى نبى مرسل». فقالوا: لا يغرنك أنك لقيت أقواما أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا[١].

وإذا كان الاغترار من الفريقين فإنه يصح أن نقول إن الخطاب للكفار جميعا الذين يغترون مثل هذا الغرور، وخصوصا أن النبى ﷺ أمر بأن يخاطب بهذا الذين كفروا، سواء أكانوا من هؤلاء أم كانوا من أولئك، وإن الكفر بالحقائق

(١) رواه أبو داود: الخراج والإمارة والفيء - كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٢٦٠٧).

الواضحة البينة التى تدركها العقول السليمة يكون سببه دائما اغترارا بأمر مادى مسيطر على النفس يجعل عليها غشاوة فلا يدرك العقل، ولا يؤمن القلب.

وهنا يرد بحث لغوى وهو: لماذا أدخل السين فى قوله تعالى: ﴿ سَتُغْلَبُونَ﴾ ولم يقل تعالت كلماته: ستحشرون؟

والجواب عن ذلك: أن السين لتأكيد القول، والذى كان موضع شك عند هؤلاء هو كون النبى ﷺ سيهزمهم فى الدنيا، والحشر قد أكده سبحانه وتعالى فى كثير من آى الكتاب. وفوق ذلك فإن السين مقدرة فى تحشرون باعتبارها معطوفة على «ستُغلَبون» والعطف على نية تكرار العامل.

ولقد أشار سبحانه إلى أن الحشر سيكون تجميعا للكفار يساقون بعده إلى نار جهنم، وجهنم هى الجزء العميق فى النار؛ ولأنه بعد الحشر يكون السَّوق إلى نار جهنم وتعدت كلمة يحشرون بـ «إلى»؛ إذ قد تضمنت مع معنى التجمع معنى السَّوق والأخذ إلى نار جهنم. ثم أشار سبحانه إلى شدة العذاب بقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى أنها ليست مُقَاما محمودا بالنسبة لهم، بل هى مقام مذموم منهم يصح أن يقال فيه بالنسبة لهم «بئس المهاد» فجهنم ليست موضع ذم فى ذاتها باعتبارها دار جزاء عادل، ولا يذم الجزاء العادل ولو كان قاسيا، ولكن هى موضع الذم ممن ينزل به لأنه سيتلقى قسوته. ومعنى المِهَاد: الفراش المبسوط السهل اللين المريح، فيقال: مهد الرجل الأمر بسطه وهيأه وأعده، وعلى هذا فالتعبير فيه نوع من التهكم بهم، إذ هى لا تكون أمرا ممهدا.

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ هذه الآية نزلت بعد غزوة بدر، فالفئتان المشار إليهما فى الآية: المسلمون، والمشركون. والمسلمون الفئة التى تقاتل فى سبيل الله، أى فى سبيل إعلاء كلمته وطلبا لمرضاته، والأخرى الكافرة: المشركون. والمعنى على هذا أن الله سبحانه إذ ينذر الكافرين بأنهم سيغلبون فى الدنيا، ينذرهم بما قامت عليه البينات، وظهرت به الأمارات؛ وذلك لأن لهم آية أى أمارة ودلالة تدل على صدق ما يوجهه النبى ﷺ من أنهم سيغلَبون، وتلك الآية الدالة على صدق ذلك التهديد والإنذار الشديد هى فى حال الطائفتين اللتين التقتا فى حرب قوية، إذ انتصرت الفئة التى تقاتل فى سبيل الله وهى القلة، على الفئة الكافرة وهى الكثرة، ومع أن أولئك الذين يقاتلون فى سبيل الله كانوا يعلمون أن أولئك أكثر عددا، وأكثر عُدَّة.

ونريد أن نبحث هنا فى بعض الألفاظ التى لها إشارات بيانية:

فقوله تعالى عن الفئة الكافرة: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فيه إشارة إلى بُعد ما بين الفريقين من حيث الغاية من القتال؛ ففيه إشارة إلى تقدم الأولى معنويا، وتأخر الثانية؛ فالأولى تقاتل لا لعرض من أعراض الدنيا، ولا لغاية مادية مبتغاة، بل للحق، وفى سبيل الحق، ومرضاة للحق جل جلاله؛ والأخرى تكفر بكل هذه المعنويات فتقاتل فى الباطل وللباطل ولنصرة المادة ، ولأعراض الدنيا؛ وفرق ما بين الفئتين عظيم؛ فإن كانت الأولى فقيرة فى المال قليلة فى العدد، فهى قوية بالمقصد والغاية، والثانية على نقيض ذلك تماما، فهى كثيرة المال وكثيرة العدد، ولكنها فقيرة فى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ فيه بيان أن المؤمنين يرون المشركين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أى أكثر منهم مرتين، فالمثل معناه المساوى، والمثلان لأمرٍ ضعفُه، والمعنى على هذا أن المؤمنين الذين أعطاهم الله ذخيرة من الإيمان واليقين وطَلب الحق يرون أعداءهم رأى العين لا بالوهْمِ والخيال ضعفهم، ومع ذلك لم

يجبنوا ولم يضعفوا. فالتعبير بقوله: ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ تأكيد الرؤية بأنها رؤية بصرية، لا رؤية تقديرية؛ فهم يعاينون معاينة لا لبس فيها ولا غموض أنهم ضعفهم. فالذين يعتزون بالكثرة عليهم أن يعرفوا أى الفريقين غلب، والذين يعتزون بالمادة عليهم أن يعرفوا لمن كانت النصرة: أهى للمادة أم للروح والإيمان؟ فالذين رأوا خصومهم مثليهم هم المؤمنون. وهذا ترجيح ابن جرير الطبرى. وقد رجح الزمخشرى أن الذين رأوا: هم المشركون، قد رأوا المؤمنين مثليهم. وإن الأول فى نظرنا أولى؛ لأن المسلمين فى غزوة بدر كانوا فعلا أقل عددا من المشركين، وأقل عدة، ولأن التعبير بقوله تعالى ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ يفيد أن رؤية هذه الكثرة كانت بصرية بالمعاينة، لا بالتقدير أو التخيل أو التوهم، ولا يمكن أن يتحقق ذلك فى رؤية المشركين للمؤمنين؛ لأنه كان يكذب، ولذلك نختار أن الرؤية كانت رؤية المؤمنين للمشركين، ولكن قد ورد اعتراضان:

أحدهما: أن المشركين فى بدر كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين تقريبا ولم يكونوا ضعفهم.

ثانيهما: أن الله سبحانه قد قال فى غزوة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ... ﴿٤٤﴾﴾ [**الأنفال**].

وإن رد الاعتراض الأول سهل؛ فإن العين لا تقدر تقديرا عدديا، ولكنها تقدر تقديرا تقريبيا؛ فثلاثة الأمثال قد تُرى رأى العين مثلين. وقد يقال إن المراد بكلمة مثلين ليس التثنية إنما المراد مجرد التكرار وذلك استعمال عربى، كما فى قوله: ﴿ثم ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ... ﴿٤﴾﴾ [**الملك**]، فالمراد تكرار النظر، لا التقدير بمرتين اثنتين؛ كذلك هنا المراد التكرار العددى لا مجرد مثلين اثنين، وإن ذلك شائع، فيقال مثلا: اقرأ هذا مرتين ولا تكتف بالنظرة الأولى، والمراد التكرار.

أما الاعتراض الثانى، فقد أجاب عنه ابن كثير فى تفسيره المستمد من الأثر، بأنهم عندما أرادوا حسبانهم رأوهم ضعفهم أو يزيدون، فلما ألقى فى قلوب الذين

آمنوا البأس والقوة، والتقوا بهم استهانوا بهم؛ ولذا روى عن ابن مسعود أنه قال فى غزوة بدر: «نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا» وتلك حكمة الله العلى الخبير؛ رأوهم يزيدون عليهم أضعافا، وذلك هو الحس الواقع، ولكن عند اللقاء صغروا فى أعينهم ليكون النصر؛ لأن المقاتل إن استكثر قوة خصمه عند اللقاء ضعف أمامه فيكون الانهزام، وإن استهان مع الحرص كان النصر؛ ولذا سئل على رضى الله عنه: كيف كنت تصرع من يبارزك؟ فقال: «كنت أكون وهو على نفسه» أى أن عليا يقدم مستعليا بإيمانه على خصمه، وخصمه يحس بالخوف فتكون عليه قوتان ينتفع بهما على: قوة من نفسه، وقوة من نفس خصمه ولَّدها الخوف.

﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾

اشتمل ذلك النص الكريم على حقيقة مقررة، ودعوة إلى التأمل والاستبصار لأولى الأبصار، ليمتنع الناس عن الاغترار بالقوة والاعتزاز بغير الله تعالى. أما الحقيقة فهى أن الله ينصر من يشاء، فهو الذى سينصر ويخذل، وأن من يعتمد على قوته وحده من غير اعتبار بما تجرى به المقادير يخذله الله، وإن شأن الذين يغترون بالقوة المادية دائما ويعتزون بها لا يعتمدون على الله تعالى، ولا يعملون حسابا للقدر الذى يجريه خالق الكون حسب مشيئته وتدبيره، وأنهم إذ ينسون هذا يأتيهم القدر من حيث لا يحتسبون، فينهزمون حيث يرتقبون النصر؛ وإذا كان النصر والخذلان بيد الله تعالى، فالله سبحانه ينصر من ينصره، ويخذل من يكفره، كمال قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد] وكما قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

وأما الدعوة إلى الاعتبار فقد ذكرها رب البرية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ أى إن ذلك الذى رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة التى تقاتل فى سبيل الله، غلبت الفئة الكثيرة الكافرة التى تقاتل فى سبيل الشيطان

مع كثرتها وعدتها وأموالها فيه اعتبار بأن يجعلوا منه سبيلا لإدراك المستقبل؛ فإن العبرة معناها في اللغة وفي عرف القرآن والناس أن يؤخذ من الأمور الواقعة المحسوسة دليل على ما يمكن أن يأتي المستقبل غير المحسوس والمكشوف، فكان على هؤلاء أن يعرفوا من هذه الواقعة التي انتصر فيها الإيمان مع قلة أهله على الكفر مع كثرته، أن القوة المادية ليست كل شيء؛ وإن الذي يدرك ذلك هم أولو الأبصار، أي أصحاب المدارك الصحيحة التي تفهم الأمور على وجهها، فالمراد من الأبصار ليس البصر الحسي بل البصر المعنوي العقلي ولكن الذين طمست عليهم المادة لا يدركون الأمور على وجهها، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف].

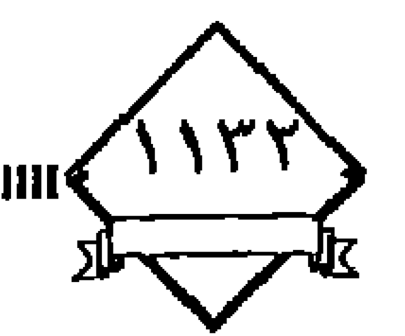
وإنه لكي تخرج النفس من ربقة المادة تذكر الله دائما، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد].
اللهم ثبت قلوبنا على دينك والإيمان بنصرك وعدلك يارب العالمين.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾

فى الآيات السابقة بيّن سبحانه اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وكثرتهم، وكثرة النفر الذين يعاضدونهم، وأشار إلى اغترار آل فرعون بسلطانهم، وعاقبة أمرهم؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه مصدر الغرور وأسباب الاغترار فى هذه الدنيا، وما ركز فى قلوب الناس من حب الشهوات التى يؤدى الاشتداد فى طلبها إلى الانحراف فى التفكير وإلى أن يطمس على البصيرة فلا تدرك الأمور على وجهها؛ ثم يبين سبحانه منزلة ما فى هذه الدنيا من مُتَع فانية بجوار ما فى الآخرة من نعيم دائم. وإذا كان قد بيّن سبحانه وتعالى أولا مآل المغترين المعتزين بأعراض الدنيا، فقد بين فى هذه الآيات مآل المتقين وأوصافهم، ومقدار فهمهم لزخارف هذه الحياة وما فيها من شهوات مردية عند الانحراف فى طلبها. ولقد ابتدأ سبحانه بما ركز فى فطرة كل إنسان من حب وطلب لهذه الشهوات فى مواضعها، فقال سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ هذه زينة الحياة الدنيا، وهذه متعها، وهى مصدر الخير، ومصدر الشر فيها، وبها تكون الرفعة، وبها يكون السقوط، وبها تكون العزة، وبها تكون الذلة؛ والإرادة الإنسانية هى التى تجعلها فى أحد الطريقين، فإن كانت الإرادة قوية حازمة جعلت من هذه الأمور مصدر خير وطريقا إلى الجنة، وإن تحكم الهوى وغلب الشيطان، وضعف الوجدان الدينى، كانت هذه الأمور مصدر شر وطريقا إلى النار؛ فهى طريق الجنة عند الأبرار، وطريق النار عند الأشرار، وكل امرئ وما تهوى نفسه.



وإن هذه الأمور محببة لنفس الإنسان، مجبول بفطرته على الميل إليها، والاستشراف لها وطلبها، فهى طَلِبَةُ النفس الإنسانية؛ إذ هى من طبيعتها، وهى تتقاضاها طبيعة الإنسانية، ومن يحاول أن ينزع الميل إلى هذه الأشياء الستة من نفسه، فإنما يحاول اقتلاع الخاصة الإنسانية من كونه، فالطبيعة الإنسانية قد ركز فيها حب هذه الأمور، ولا تخرج هذه الأمور من النفس الإنسانية إلا إذا بعد الإنسان عن طبعه.

ولأن هذه الأمور فى الفطرة الإنسانية عبر سبحانه وتعالى بالبناء للمجهول، فقال سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فأبهم سبحانه مَنْ زَين حب هذه الأمور للإشارة إلى أنها فى الفطرة الإنسانية، نشأت فى الإنسان منذ خلقه سبحانه وأنزله إلى هذه الدنيا، فهو قد كوَّنه سبحانه ومعه تلك الطبيعة الإنسانية، وإنه ينتهى الأمر إلى أن الذى زين هذا الحب هو الله سبحانه وتعالى، وقد يؤكد ذلك قراءة مجاهد (زَيَّنَ لِلنَّاسِ)[1] بالبناء للفاعل، ويكون الفاعل ضميرا يعود على الله سبحانه وتعالى. ومعنى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾: أودعت فطرتهم حب هذه الشهوات، وأنهم لا يرون فيها نقصا ولا مخالفة للكمال والشهوات المراد بها موضع الشهوات، فهى من باب ذكر المصدر وإرادة اسم المفعول؛ فهذه الأمور الستة هى المشتهيات، وليست هى الشهوات، ولكن أطلق عليها اسم الشهوات للإشارة إلى شدة محبتها والحرص عليها. ولقد قال الزمخشرى فى ذلك: «جعل الأعيان التى ذكرها شهوات مبالغة فى كونها مشهاة محروصا على الاستمتاع بها» فالمراد أنهم يحبون هذه الأشياء، ويرون محبتها أمرا حسنا، ولا غضاضة فيه.

ويرى الزمخشرى أن قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فيه إشارة إلى خساسة هذه الأمور، ويقول فى ذلك: «والوجه أنه يقصد تخسيسَها فيسميها شهوات؛ لأن الشهوة مسترذلة مذموم من اتبعها شاهد على نفسه

---

(١) وبها قرأ الضحاك، ينظر: المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، البحر المحيط ٢/ ٤١٣، الدر المصون ٢/ ٣١.

بالبهيمية، وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ثم جاء بالتفسير ليقرر فى النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس فيكون أقوى لتخسيسها، وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله».

ولسنا نرى رأى الزمخشرى فى أن هذه خسيسة فى ذاتها، أو يقصد إلى تخسيسها فى ذاتها، وإنما نرى أنها فطرة الله يبينها الله سبحانه وتعالى، ويشير إلى أنها مطلوبة من كل إنسان، وأن المقتصد يُجمل فى الطلب ويجعله للخير، وغير المقتصد يسرف فيفحش، فيكون الشر. وزينة الله التى خلقها ليست حراما، وهى من قبيل هذه المشتهيات، فيقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... (٣٢)﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ...(٢٢)﴾ [البقرة]، وقال ﷺ فى الخيل: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»(١). وقال فى الحرث وهو الزرع: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له به صدقة»(٢). وقال ﷺ: «حبب إلىّ من دنياكم: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(٣). وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته»(٤). وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم].

---

(١) متفق عليه رواه البخاري: الجهاد والسير - الخيل معقود في نواصيها الخير (٢٦٣٨)، ومسلم: الإمارة (٣٤٨٠).

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في مسند المكثرين (١٣٠٦٥)]، والحديث متفق عليه فقد رواه البخاري: المزارعة - فضل الغرس (٢١٥٢)، ومسلم: المساقاة (٢٩٠٤).

(٣) رواه النسائي: عشرة النساء - حب النساء (٣٨٧٨)، أحمد: مسند المكثرين (١٨٤٥).

(٤) رواه أبو داود: الزكاة - حقوق المال (١٤١٧).

وبهذا يتبين أن هذه الأعيان ليست خسيسة فى ذاتها، ولا يقصد تخسيسها، وإن كانت هى دون نعيم الآخرة ومتعها.

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ فيه إشارة إلى أن الناس يحبون هذه الشهوات ويستحسنون هذه المحبة؛ وذلك لأن الإنسان قد يحب شيئا ولكنه فى محبته له غير راض عن نفسه، كأولئك الذين يميلون إلى بعض الآفات الاجتماعية، كالخمر، والميسر؛ فإنهم مع ميلهم إليها يستنكرون حالهم، ولا يحمدون ما يفعلون، إلا إذا كانوا قد طمس الله على بصيرتهم، فعموا وضلوا، وَزُيِّن لهم سوءُ أعمالهم فرأوْه حسنا، ولكن الناس جميعا مع محبتهم لهذه الأمور يستحسنون هذه المحبة، ويرضون عن أنفسهم فى ميلهم إليها؛ وإن ذلك الاستحسان من عامة الناس يدل على أن محبة هذه الأمور من فطرة الإنسان ومن طبيعته؛ وإن هذا الميل لا يدل على خسة فى الطبع، ولكنه يدل على أنها فى الفطرة.

وإن محبة هذه الأشياء، وهى رمز للطبيعة الإنسانية ليست بدرجة واحدة، بل تختلف بمقدار قوة نزوع النفس إليها، وتختلف بمقدار ما تشبع به الحاجات والغرائز الإنسانية.

وقد يقول قائل: وكيف يكون حب الذهب والفضة فطريا، مع أنه ليس من الفطرة؟ والجواب عن ذلك: أن الذهب والفضة يشبعان الحاجات الإنسانية، فهما من الوسائل للوصول إلى النساء وغيرهن، وهما فى خدمة تلك الفطرة، وأحبهما الناس لأنهما يوصلان دائما إليها، ثم صار حبهما لذاتهما، وأشبه أن يكون من الفطرة.

ولنذكر هذه الأمور الستة، وهى مرتبة مراتب بترتيب القرآن الكريم:

المرتبة الأولى: النساء، وحبهن فطرى فى الطبيعة الإنسانية مستكن فيها، لا يختلف فيه الناس إلا من إيفَت[1] مشاعره وفسدت طباعه، وهن زهرة هذا

(١) أي أصابتها الآفة.

الوجود الإنساني، ولقد سماهم القرآن كذلك فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

وقال تعالى فى العلاقة بين الرجل والمرأة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]. وإن الرجل فى حب النساء قد يستهين بكل شيء. ولقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»[١]. وقد يقول قائل إن المرأة من المكلفين ومن الناس فلماذا ذكر حب الرجال للنساء، ولم يذكر حب النساء للرجال، وكلاهما فطرى فى الطبع الإنسانى؟ وقد أجاب عن ذلك بعض المفسرين بأن طلب الرجل للمرأة أشد وأقوى وأحد، وكثير من الرجال من يفتتنون بالنساء، وقليل من النساء من تظهر فتنتهن بالرجال، والحس يؤيد طلب الرجل للمرأة، فهو يبذل النفس والنفيس فى طلبها، ولا يعرف من النساء إلا قليلا من يبذل ذلك.

والرأى عندى أن ذكر حب الرجال للنساء فيه إشارة إلى علاقة المحبة المتبادلة بين الفريقين؛ فهى إشارة إلى تلك العلاقة الفطرية من الجانبين، فذكر محبة الرجل للمرأة فيه تنبيه إلى محبة المرأة للرجل؛ وما يستفاد بالإشارة يستغنى فيه عن العبارة، واكتفى بذكر حب الرجل لأن حبه الأوضح، ولأنه الأشد، ولأنه الذى يؤدى فى جملة أحواله إلى الفتنة، ولأن المرأة مجيبة فى هذا الباب لا طالبة، وإن سبقت هى بالمحبة حاولت أن تخلق الطلب فى نفس من تحب.

وحب النساء ليس شرا؛ لأن الله جعل المرأة رحمة للرجل، إنما يكون الشر فى الإسراف فى الطلب حتى يكون النساء خلب كبده، وفى طلب الحرام، وفى طلب الجمال من غير ملاحظة الدين؛ فلقد قال ﷺ: «إياكم وخضراء الدِّمن»[٢]،

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: النكاح – ما يتقى من شؤم المرأة (٤٧٠٦)، ومسلم: الذكر والدعاء (٣٩٢٣) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه. وراجع الإكمال من الجامع الصغير، والكامل لابن عدي.

وقال ﷺ: «تنكح المرأة لمالها وحسبها وجمالها ودينها، عليك بذات الدين تربت يداك»[١].

ولقد قال ﷺ: «من أراد أن يلقى اللهَ طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر»[٢].

المرتبة الثانية: حب البنين، وقد ذكر حب البنين بعد حب النساء؛ لأن البنين ثمرة الحب الأول؛ وفيه إشارة إلى التوجيه الإسلامى، وهو أن يكون حب النساء ذريعة إلى الإنجاب والنسل لا لذاته، كما قال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة»[٣]. وهل المراد من البنين الذكور فقط؟ الظاهر ذلك، ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف] وما هو واقع بين الناس فى الماضى والحاضر من أنهم يطلبون الذكر دون الأنثى، وأنهم يرون فى كثرة البنين نصرة وفخارا، وفى البنت غير ذلك؛ ولكن لو أننا قلنا إن المراد الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا لكان فى النص القرآنى متسع؛ لأن الابن يطلق ويراد الذكر والأنثى على سبيل المجاز، وإن محبة الولد بعد ولادته أمر فطرى لا فرق بين ذكر وأنثى، وإن كان الكثيرون يرغبون فى الذكور دون الإناث فإن ذلك لا ينفى المحبة الفطرية لأولاده جميعا، والعرب أنفسهم كانوا يحبون بناتهم وإن كانوا لا يعتزون إلا بالبنين. وإنى أميل إلى هذا؛ فالأولاد جميعا ثمرات القلوب وقرة الأعين؛ ولقد قال النبى ﷺ: «إنهم لثمرة القلوب وقرة الأعين، وإنهم مع ذلك لمجبنة مبخلة محزنة»[٤].

والمرتبة الثالثة: حب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. روى أن النبى ﷺ قال: «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية»[٥] وإن كانت الأوقية التى نعرفها هى

---

(١) متفق على صحته وقد رواه البخاري: النكاح - الأكفاء في الدين (٤٧٠٠)، ومسلم: الرضاع - استحباب نكاح ذات الدين (٢٦٦١).

(٢) رواه ابن ماجه: النكاح - تزويج الحرائر (١٨٥٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) فتح الباري في شرحه حديث: من استطاع منكم الباءة (٤٦٧٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه: الأدب - الوالد والإحسان إلى البنات، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٩٠٤).

(٥) رواه الدارمي: فضائل القرآن - كم يكون القنطار (٣٣٣٤) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الأوقية التى أشار إليها النبى ﷺ فالقنطار الذى نعرفه فى مصر هو القنطار الذى ذكر فى حديث النبى ﷺ؛ لأن القنطار (١٢٠٠) أوقية لأنه مائة رطل والرطل (١٢) أوقية. وقد قال الزجاج فى أصل معنى القنطار: إنه مأخوذ من عقد الشىء وإحكامه، تقول العرب: قنطرت الشىء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها، والقنطرة المعقود، فكأن القنطار شىء محكم يسع ذلك المال، أو أنه جمع قدر كبير من المال متراص الأجزاء محكم الربط. والمقنطرة معناها مضاعفة مقادير القنطار، فمعنى قناطير مقنطرة عدد كثير من القناطير متضاعف، كقولك ألوف مؤلفة، وأضعاف مضاعفة، والمراد أن كثرة المال أمر محبوب مطلوب زين للناس حبها، ومحبة المال الكثير قد أودعت قلوب الناس؛ لأنهم رأوا أنه السبيل إلى طلب ملاذ هذه الحياة، فلا يجد غايته من النساء إلا ذو مال، ولا غايته من إشباع الحاجات إلا ذو المال؛ ولقد قالت عائشة رضى الله عنها: «رأيت ذا المال مهيبا، ورأيت ذا الفقر مهينا» وقالت رضى الله عنها أيضا: «إن أحساب ذوى الدنيا بنيت على المال».

وإن محبة المال لم تكن فى أول الأمر لذات المال، ولكن لأنه ذريعة لغيره من ملاذ الحياة ومطالبها، ولكن بتوالى الأزمنة نسى كثير من الناس الغاية، واتجهوا إلى الوسيلة فصارت فى ذاتها غاية، وأصبح المال يطلب لأنه غاية فى ذاته، كما هو الشأن فى كل وسيلة تؤدى إلى أمر محبوب مؤكد المحبة وهى مؤكدة التوصيل؛ ولذلك صار المال مطلوبا، وطلبه كالأمر الفطرى. ولقد قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الرقاق - ما يتقى من فتنة المال (٥٩٥٦)، ومسلم: الزكاة - لو كان لابن آدم (١٧٣٧)]. وجاء بلفظ «من ذهب» في صحيح مسلم (١٧٣٨). كما رواه الترمذي وأحمد والدارمي بنحوه.

وطلب المال ليس شرا، بل قد يكون خيرا إن طلب من الطريق الحلال، وأنفق فى حلال، وأعطى منه حقه. ولقد قال عليه السلام: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى»[1].

النوع الرابع: الخيل المسومة، ومعناها المعلمة بعلامة تجعلها مرموقة حسنة المنظر، تجتلب الأنظار. وقيل المسومة: الراعية. والخيل من مفاخر الناس، ومن أدوات القتال، وكانت عزا للعربى؛ ولقد ذكر النبى ﷺ أن فى نواصيها الخير، كما أشرنا من قبل؛ وقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة: لرجل ذِكْرٌ، ولرجل ستر، ولرجل وزر»[2] فهى ذكر لمن كان يقتنيها للجهاد فى سبيل الله، وستر لمن يقتنيها ويربيها ويبيع من نتاجها ما يستر به حاله ويرد غائلة الفقر، ووزر لمن يقتنيها ويفاخر بها، وكمن يسابق بها فى قمار أو ما يشبه القمار. والخيل فى أصل طلبها كانت لأنها أداة الحرب، ومن عدة القتال، ثم صارت هى مطلبا يقتنى لذاته، ويرغب فيه.

والنوع الخامس: الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، وهى تكون فى حاجات الإنسان، ويتخذ منها مركبا وزينة ومطعما؛ قال تعالى: ﴿ **وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦** ﴾ [**النحل**].

والنوع السادس: الحرث، وهو الزرع والغراس؛ لأن الحرث معناه إثارة الأرض ووضع البذر أو الغراس فيها، فأطلق السبب وأريد المسبب. والزرع والشجر منهما يؤخذ ملبس الإنسان وطعامه وأدوات زينته.

هذه إشارات إلى متع الحياة التى ذكرها النص القرآنى الحكيم. ويلاحظ أن القرآن الكريم اقتصر على ذكر هذه الأمور مع أن فى الحياة متعا حلالا غيرها،

---

(١) صحيح مسلم: الزهد والرقائق (٥٢٦٦) عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وأحمد: مسند العشرة المبشرين (١٣٦٤).

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم: الزكاة - إثم مانع الزكاة (١٦٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري: شرب الناس والدواب من الأنهار (٢١٩٨).

فلماذا اختصها بالذكر؟ والجواب عن ذلك أنه ذكرها لأنها أوضح من غيرها، ومجمع على طلبها، ولأن فيها إشارة إلى أنواع المتع كلها؛ فذكر النساء فيه إشارة إلى متعة الصلة التى تربط بين الرجل والمرأة، سواء أكانت متعة جسدية أم كانت متعة روحية، وإشارة إلى الأسرة التى هى قوام المجتمع. وذكر البنين فيه إشارة إلى بقاء النوع الإنسانى، والعزة بالقبيلة والعشيرة والجنس والأرومة. وذكر المال فيه إشارة إلى الحاجات الإنسانية والنظم الاقتصادية التى يعد المال أساسها وعصبها. وذكر الخيل المسومة فيه إشارة إلى الكفاح فى نصرة الحق، والجهاد فى سبيل الله، وأنه لا يحمى الجماعة إلا قوة مسلحة، كما قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴿٦٠﴾﴾ [**الأنفال**]. وفى ذكر الأنعام والحرث إشارة إلى أصول الإنتاج الطبعى الذى هو مادة الاقتصاد الأولى. فذكر هذه الأمور الستة يومئ إلى سائر متع الحياة؛ ولذلك اعتبرها الله سبحانه متع الحياة فقال:

﴿**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ أى هذه الأمور التى حببت إلى النفوس هى متاع الحياة الدنيا، وموضع النفع والانتفاع فيها، وهى موضع الزينة ومطلب الناس الذى يستمتعون به ويرغبون فيه، ولكن عليهم فى طلبها والسعى إليها واللجاجة فى طلبها أن يلاحظوا ربهم؛ وأن يطلبوا ما عنده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ أى أن الله جل جلاله وهو المستحق للألوهية وحده عنده حسن المرجع، فإن المآب معناه المرجع، من آب يئوب بمعنى رجع.

وفى ذكر هذه الجملة السامية فى هذا المقام إشارة إلى أن هذه الأمور مع أنها متع هى موضع حساب، فإن اعتدلوا فى طلبها وقصدوا إليها من طريقها الحلال وأجملوا فى الطلب كانت موضع ثواب، وإن طلبوها من غير حلها، ولم يعطوا حقها، فإنها تؤدى إلى العقاب. وفى هذا الذكر إشارة إلى وجوب الاعتدال فى

طلبها، فما يعاقب عليه هو الإسراف والإفحاش، وأن ينسى بها ربه وحقه فيها، حتى تلهيه عن ذكر الله، وعن حق الله. وأيضا ففيه إشارة إلى أن عند الله نعيما آخر أعلى وأعظم، وهو ما بينه بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب للنبى ﷺ؛ يكلفه جل شأنه أن يوجه إليهم ذلك السؤال لينبههم إلى عظيم شأن ما ادخره لهم سبحانه من نعيم مقيم إن أحسنوا، فالاستفهام للتنبيه؛ وقد حوى من طرق التنبيه ثلاثة: أولها: التعبير بـ ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾؛ لأن الإنباء معناه الخبر العظيم الخطير الشأن، وثانيها: التعبير بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ بالإشارة للبعيد للدلالة على عظيم شأن ما سيخبرهم به، وبالتعبير بـ «كم» كأنه يدعوهم جميعا ليستمعوا إلى ما سيخبرهم به، وثالثها: التعبير بـ «خير» الدالة على الأفضلية، وأن نعيم الجنة خير لا شر فيه قط، وأن نعيم الدنيا لا يخلو من شر.

وبعد أن كان الاستفهام الذى سيق للتنبيه كان الجواب هو :

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ هذه متع الآخرة، وهى أعلى مقاما، وأعظم مكانا من نعيم الدنيا، وهى أربعة:

أولها: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وفى هذه الجنات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وثانيها: الخلود، وهو نعمة وحده، فكل ما فى الدنيا عرض زائل يعروه الفناء، ومافى الآخرة دائم البقاء.

وثالثها: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ لا دنس فيها، ولا ما يشينهن أو يوجد الريب، فلا معكر من شر أو ما يشبهه.

ورابعها: وهو أعظمها بل أعظم ما فى الوجود، وهو ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى رضا عظيم من خالق الخلق، ومبدع الكون ومنشئ الوجود، فالرضوان مصدر

كـالرضـا، ولكن يزيد عليـه أنه الرضـا العظيم؛ لأن زيادة المـبنى تدل على زيادة المعنى، ولأن التنكير قصد به التـفخيم والتعظيم، ولأنه إبهامه ثم بيان مـصدره فيه إشـارة إلى شرف هذا الرضـا بإضافـة لأعظم نسـبة إذ هو منسـوب إلى الله جل جلاله.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى أن الله سبحانه جل جلاله عليم بأحوال العباد علم من يبصـر ويرى، فهو يعلم دقـائق أحوالهم وخفى أمـورهم، وخلجات قلوبهم. وصدَّر سبحـانه القول بلفظ الجلالة لتربية المهابة فى القلوب، وإشـعارها بعظمته. وإذا كان الله سبحانه وتعـالى عليما بخفى أحوالهم، فإنه سيـجزى المحسن إحسانا والمسيء عقابا؛ فهذه الجـملة السامية فيها وعد ووعيد، وفيـها إشعار برقابة العلى القدير، مما يـجعل المؤمن التقى يـشعر دائمـا بأن الله يراه، وإن لم يكن هو يراه، ويتـحقق قـول الرسـول ﷺ: «اعـبد الله كـأنك تـراه، فـإن لم تكن تراه فـإنه يراك»(١).

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ هذه أول أوصاف المؤمنين الذين اسـتحقـوا ذلك الجزاء الكريم من رب الـعالمين: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ وهذا الوصف يدل على أنهم دائما متذكرون للإيمان وحالهم إنما هو تصديق للنبى فى كل ما جاء به، فلسان حـالهم دائما أنهم يقولون ﴿آمَنَّا﴾ أى أنهم يقولون إنهم يذعنون ويصدقـون كل ما جاء به القرآن الكريم، وهدى النبى الأمـين، ومن كان لسان حاله تذكر الإيمان والإذعان لأمر الله تعالى لا تكون منه معصية كبيرة، ولا إهمال لأوامر الله تعالى؛ لأن ارتكاب المعـاصى يتنافى مع الإذعان المطلق، وتذكر الإيمان الدائم؛ إذ المعصـية تكون فى غفلة القلب وعدم تذكـر الإيمان؛ ولذا قال عليـه الصلاة والسـلام: «لا يزنى الزانى وهو مـؤمن»(٢)، وإذا كان الإيمـان بالله

---

(١) هو جزء من حديث جبريل الشهير وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم، وذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح بلفظ المصنف رحمه الله تعالى.

(٢) متفق عليـه؛ رواه البخاري: المظالم والغصب – النهـبى بغير إذن صاحـبه (٢٢٩٥)، ومسلم: الإيمان – نقص الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس(٨٦)].

مستوليا على شعورهم فهم دائما يغلبون الخوف على الرجاء والضراعة على الطمع، ولذا رتبوا على هذه الحالة طلبهم المغفرة وقالوا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فهم دائما يحسون بعظم أخطائهم، وذلك من قوة إيمانهم، وقوة إذعانهم؛ ولذلك يطلبون الستر والغفران، والوقاية من النار، وذلك كله من قوة الوجدان الدينى، وعظم سلطان النفس اللوامة، والضمير المستيقظ، فتكبر فى نظرهم هفواتهم، وتصغر حسناتهم، ويعتقدون أنه لا جزاء إلا أن يتغمدهم الله برحمته.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾

هذه خمسة أوصاف للمؤمنين الصادقى الإيمان، والمذعنين حق الإذعان:

أولها: أنهم صابرون، والصبر صفة الإيمان حقا وصدقا، وقد حث عليه القرآن فى أكثر من سبعين موضعا، والصبر له شعب كثيرة، منها وهى أدناها الصبر عند الشديدة، وتحملها من غير أنين ولا شكوى، وهذا هو الصبر الجميل، فإن ضج الصابر وشكا فصبره غير جميل، ومنها الصبر بضبط النفس عن الشهوات وقدعها عن الأهواء المردية، وجعل العقل متحكما دائما؛ وهذه مرتبة عالية فى الصبر. ومنها الصبر على تحمل النعم؛ فإن النعم تحتاج إلى صبر لكيلا يطغى الإنسان بسبب النعمة فتؤدى إلى الكفر بدل الشكر. ولقد قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾ [هود].

والوصف الثانى: أنهم صادقون، والصدق من أكمل الصفات الإنسانية، وهو شُعَبٌ أيضا فمنها الإخبار بالحق؛ ومنها أن يصدق نفسه، فلا يخدعها، ويزين لها سوء الأعمال، ويغالط قلبه وحسه؛ ومنها أن يتعرف عيوب نفسه بالحق ويتكشفها ويتعرفها ولا يسترها عن نفسه، لتكون بين يديه ماثلة دائما فيستيقظ ضميره، وهذا هو طريق التهذيب الروحى الحق.

والوصف الثالث: **أنهم قانتون**، والقانت هو الطائع المديم للطاعة غير متململ منها، ولا متبرم بها، ولا خارج على حدودها، فالقنوت يصور الإذعان المطلق.

والوصف الرابع: **أنهم المنفقون**، أى أنهم ينفقون المال فى مصارفه سواء أكانت عامة أم كانت خاصة، وقد بيّنّا مناهج الإنفاق الدينى فيما أسلفنا.

والوصف الخامس: **أنهم مستغفرون بالأسحار**، والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل، وهذا الوقت وقت التهجد، وتذكر ما كان من عمل، واستقبال ما يكون من أعمال، فالاستغفار فيه باستشعار الضراعة وتذكر الله، والشعور بمراقبته، يجعل المؤمن يستقبل أعمال الحياة بقلب سليم نقى كما هو، فلا يكون فيه إلا خير، وليس الاستغفار هو ترداد كلمة أستغفر، إنما هو الشعور بالخضوع، ومراقبة الله والضراعة إليه سبحانه، وليس كذلك أكثر المستغفرين؛ ولذا قالت رابعة العدوية: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير». ولقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ومن قالها بالنهار موقنا فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[1].

شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ عن شداد بن أوس رضي الله عنه: الدعوات– أفضل الاستغفار (٥٨٣١) كما رواه الترمذي والنسائي وأحمد بنحوه.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

بَيَّنَ سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أوصاف المؤمنين فى تبتلهم، وصدق إيمانهم، وإذعان نفوسهم، وصبرهم وضبط شهواتهم؛ وهنا يبين حقيقة الإيمان والإسلام وأن الإسلام شريعة النبيين أجمعين، وهو دين الله المتين؛ وابتدأ سبحانه بحقيقة الإيمان فقال:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ الشهادة: الحضور، إما بالبصر، وإما بالبصيرة؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ... ﴿٢٨﴾﴾ [الحج] وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور] ثم أطلقت الشهادة على الإخبار المبنى على المشاهدة والمعاينة، ثم أطلقت بمعنى العلم، وبمعنى الحكم؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ... ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف].

وقوله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ للعلماء فى تفسير الشهادة فيه طريقان:

أحدهما: أن الشهادة الإخبار، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن وحدانيته بالآيات القرآنية التى أنزلها على نبيه فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ... ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص] وأخبر الله سبحانه وتعالى عن وحدانيته أيضا بالآيات الكونية التى وجه الأنظار إليها من خلق السموات والأرض وما بينهما، ومن تسخير

الشمس والقمر، ومن إيلاج الليل والنهار. وأخبر سبحانه عن وحدانيته بالأدلة القاطعة التى أشار إليها فى كتابه العزيز، من مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء].

وإخبار الملائكة عن وحدانيته سبحانه، بعبادتهم له سبحانه وطاعتهم المستمرة ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم] ونزولهم على الأنبياء بأخبار الوحدانية.

وشهادة أولى العلم من الناس هى إخبارهم أيضا بما يستنبطونه من الأدلة العلمية الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه، وتصديقهم لما جاء به الرسل، ونطقهم بما آمنوا به ودعوتهم إليه؛ وهذه الشهادة مختصة بأهل العلم الذين قد أخلصوا فى طلب الحقيقة؛ فقد قال تعالى عن الجهال: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ... ﴿٥١﴾﴾ [الكهف].

وفى إجماع هذه الأخبار - إخبار خالق الكون، وإخبار الملائكة الأطهار، وبنى آدم الأبرار - دليل على أنه معنى مقرر لا مجال لأن يرتاب فيه عاقل.

المعنى الثانى للشهادة فى قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ هو العلم. والمعنى: علم الله فى علمه الأزلى، وعلم الملائكة بفِطَرهم وبما أنشأهم عليه رب العالمين، وعَلم أهل العلم من الناس باستنباطهم وتقصيهم لأنواع الاستدلال المختلفة أنه لا إله إلا هو. وفى جمع العلم على هذا النحو إشارة إلى أن أنواع العلم الثلاثة قد اتفقت على الوحدانية. فعلم الله الأزلى، قد تلاقى مع علم الملائكة النورانى وعلم الناس الاستدلالى على أن الله واحد، فكيف يختلف الناس فيه؟! تعالى الله سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ معناه أنه هو الواحد الأحد، الذى يسيطر على العالم بالقسط والعدل والميزان، وكل شىء فى هذا الكون بمقدار، يسير على نظام محكم بقدرته سبحانه، لا يتعدى أى جزء من أجزاء ذلك الكون الطورَ الذى

أعده الله سبحانه له، كما قال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس] وهذا التعبير السامى ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فيه مع المعنى الذى ذكرناه إشارة إلى مقام الربوبية، وهو أنه الخالق المسيطر المسير المحكم لهذا النظام الكونى، وإشارة إلى مقام الألوهية، وهو أنه وحده المستحق للعبادة، ما دام هو وحده القائم على كل شيء وفيه إشارة إلى مقام العبودية، وهو أنه لا يعبد سواه، فلا قوة لأحد أو لشيء بجوار قدرة الله؛ فهو سبحانه الديان، والمجازى للخلق على ما يعملون، بمقتضى قيامه على هذا الكون بالقسط، فإنه بحكم القسط لا يستوى الذين يعملون الخير، والذين يعملون الشر؛ ولهذا نقول: إن فى هذه الجملة الكريمة ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ إشارة أيضا إلى اليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب.

وكرر سبحانه تقرير الوحدانية فقال:

﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفى هذا التكرار إشارات إلى معان جديدة.

منها: الإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى لا يترك الناس سدى، فهو بمقتضى انفراده بالربوبية والألوهية والعبودية، قد شرع الشرائع بمقتضى حكمته، وهو يحميها بعزته وسلطانه؛ ولذا وصف سبحانه بأنه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى الذى يدير هذا الكون وأمور الناس، ويشرع لهم الشرائع ويحميها؛ لأنه العزيز الحكيم.

ثم فى هذا النص أيضا إشارة إلى كمال سلطانه وانفراده وحده بهذا السلطان.

وفيه أيضا رد على الذين يتخذون لله شفعاء يحسبون أن لهم سلطانا، وما لأحد عند رب العالمين من سلطان، فكل خلقه بالنسبة لقدرته وعلمه وإرادته سواء.

وقبل أن نترك القول فى هذه الآية الكريمة لابد من أن نتكلم كلمة موجزة فى أولى العلم؛ فمن هم أولو العلم الذين قرن اسمهم باسم الملائكة بل بلفظ الجلالة، ووضعت شهادتهم مع شهادته سبحانه، وشهادة ملائكته الأطهار؟ هذا سؤال يتردد فى نفس كل قارئ يتلو كتاب الله العظيم. ونقول فى الإجابة عنه: إنهم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

... ﴿٢٨﴾ [فاطر] وهم الذين وصفهم الله تعالى بالتفويض والإخلاص فى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران] ولذا نرى أن أول وصف من أوصافهم الإخلاص فى طلب الحقيقة، والصدق فى القول والعمل، فلا يقال لهم مثلا: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف] وقد أشار سبحانه إلى وصف آخر من أوصافهم فقال: ﴿وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ أى الذين صاحبوا العلم ولزموه، واتجهوا إلى المعانى الروحية، ولم يخلطوا بالمعانى العلمية الرغائب المادية، ولم يجعلوا العلم مطية للأهواء والمآرب المادية؛ فهاتان صفتان لازمتان أو هما خاصتان من خواص العلماء، وهما الإخلاص، والانصراف التام لطلب الحقائق العلمية بألا يجعل العلم طريقا للمنافع الذاتية الآثمة. ولقد قال رسول الله محمد ﷺ فى العلماء الذين كانت فيهم هاتان الخاصتان: «العلماء أمناء الله على خلقه»[(١)] وقال فيهم: «العلماء ورثة الأنبياء، يحبهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا»[(٢)].

هؤلاء هم العلماء الذين قرنت شهادتهم بشهادة الله والملائكة، فإن لم يكونوا كذلك فإنه يخشى أن يكونوا ممن خوف أمته منهم فى مثل ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق، عليم اللسان غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته»[(٣)].

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ فى هذا النص الكريم قراءتان: قراءة بفتح همزة «أن»، وقراءة بكسر همزة «إن»[(٤)] وعلى القراءة الأولى يكون سياق النص

---

(١) رواه ابن عساكر، والقضاعي عن أنس رضي الله عنه [كنز العمال: ج١ ص١٩٨١ (٢٨٦٧٥)]، وقد أورد الإمام أحمد: مسند الشاميين (١٧١١٨).

(٢) راجع تلخيص السنن للمنذري، وقد أخرجه عن أبي الدرداء الترمذي: العلم - ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٠٦) وأحمد (٢٠٧٢٣) والدارمي: المقدمة (٣٤٦). سنن أبى داود: العلم - الحث عل طلب العلم.

(٣) رواه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٣٧).

(٤) قرأها الكسائي بفتح همزة إن، وقرأ الباقون بالكسر. [غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار - أبو العلاء الحسن الهمداني ص٤٤٧].

الكريم هكذا: شهد الله أنه لا إله إلا هو، شهد أن الدين عند الله الإسلام، فيكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ فى موضع البدل أو عطف البيان من قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وينتهى ذلك إلى أن معنى لا إله إلا الله هو الإسلام، وأن الله يشهد بالإسلام وقد أقام الأدلة على صحته، وأنه دينه الذى ارتضاه، وشهد بذلك الملائكة الأطهار بما أخبرهم به رب العالمين، وشهد به أولو العلم بما استنبطوه، فهو دين العقل، ودين الإخلاص، ودين الله. هذا على قراءة الفتح، أما قراءة الكسر فإن الكلام يكون مستأنفا مقررا لمعانى الآية السابقة وما اشتملت عليه من معانى الألوهية والعبودية والربوبية وعزة الله وحكمته؛ لأن دين الإسلام يقتضى الإيمان بكل هذا؛ فكأن سائلا سأل: ما هو الدين الذى يقرر هذه الحقائق؟ فقال سبحانه: إن الدين عند الله الإسلام؛ وكلمة الدين تطلق بمعنى الجزاء، وبمعنى الطاعة والعبادة وبمعنى مجموعة التكليفات؛ وإنى أميل إلى المعنى الثانى، وهو أن يكون الدين هنا بمعنى الطاعة والعبادة، والمعنى على ذلك: أن الطاعة والعبادة التى يقبلها الله هى الإسلام والإسلام هو الإذعان المطلق لله سبحانه وتعالى والإخلاص لله سبحانه وتعالى، وعدم الاستكبار على الحق فى أى ناحية من نواحيه؛ وعلى ذلك يكون الإسلام هنا مكونا من عنصرين : الإخلاص لله سبحانه وتعالى، والخضوع لذات الله وحده لا لأحد سواه. وقد يؤيد هذا المعنى قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ وقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... (١١٢)﴾ [**البقرة**] وعلى هذا يكون الإسلام هنا هو كمال الإيمان بالله جلت قدرته، وتوحيده. ولقد قال النبى ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان، وعمل بالأركان»[(١)].

وإضافة الدين إلى الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ واعتبار الإسلام وحده دين الله، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين، فيه بيان فضل الإسلام

(١) رواه ابن ماجه: المقدمة - الإيمان (٦٤) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بالمعنى الذى ذكرناه؛ لأنه له ذلك الشرف الإضافى، وهو أن الله لا يقبل غيره، فوق أنه الحق الخالص من شوائب الشرك.

والإضافة فوق ذلك تفيد أنه الدين الذى نزل على كل النبيين، وأنه الأصل فى كل شرائع السماء؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ... ﴿١٣﴾﴾ [الشورى] فهو دين الله، وقد صرح سبحانه بأنه دين أبى الخليقة الثانى نوح كما يعبر بعض القصصيين، ودين آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام. وعلى هذا فدين جميع النبيين دين واحد، وهو دين الله، وهو دين الإسلام.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وعلى هذا كانت شريعة الله واحدة، وإن اختلفت الديانات السماوية التى لم يجر فيها التحريف والتبديل، فإن ذلك لا يكون فى الأصل، بل يكون فى الفرع، ولا يكون فى الكليات، بل يكون فى الجزئيات ولكن لوحظ مع ذلك أن كثيرين من أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم، فقالت اليهود ليست النصارى على شىء، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء، واختلفت كل طائفة فيما بينهم على فرق، كل واحدة تحسب أنها اختصت بالخلاص وحدها، وتكفر الأخرى أو تشلحها من حظيرة الإيمان المقدسة؛ ثم اختلفوا مجتمعين على المسلمين، ونابذوهم العداوة، وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فكانت هذه المنابذة عن بينة، ولم تكن عن جهل، بل إنهم يعرفون النبى كما يعرفون أبناءهم، ولم يؤمن بالحق كثيرون فى عصر النبى ﷺ؛ ولذا قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة] وقد بين سبحانه أن سبب ذلك الاختلاف هو البغى والظلم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فالسبب هو البغى فيما بينهم؛ لأنهم قد بغى بعضهم على بعض بالباطل، وتبادلوا ذلك البغى، كل يبغى على غيره، وإذا تبادل قوم الباطل ضعف فى نفوسهم الإيمان، فإن شدة الخصومة تورث

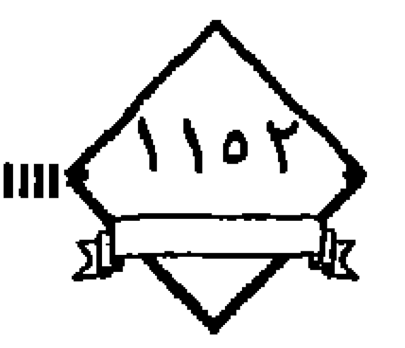
الريب، ومع الريب يكون النفاق، والمنافق لايؤمن بشيء ولقد قال الإمام جعفر الصادق: «إياكم والخصومة فى الدين، فإنها تحدث الريب وتورث النفاق» فتبادل البغى فيما بينهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ كان سببا فى عدم إيمانهم بالحق، بل فى عدم إيمانهم بشيء وإن كانوا يعلمونه ويفهمونه، فليس مصدر الإيمان العلم فقط، بل مصدر الإيمان علم وإخلاص فى طلب الحق، وإذعان له إذا بدا نوره.

ولماذا قدم سبحانه وتعالى كلمة «﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾ إذ إن السياق هكذا: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم، فقدم حينئذ المستثنى على بعض المستثنى منه؟ والجواب عن ذلك: أن هذا البيان موضع التوبيخ والاستنكار؛ إذ إن ذلك الاختلاف ما كان عن تعذر العلم بالحقائق، ولكنه كان مع أن العلم بها قد جاءهم، وكان فى قدرتهم أن يصلوا إلى الحق فى الأمر من غير اختلاف ولا نزاع ولا إثارة للشك، وكيف يختلفون مع أن العلم قد جاءهم، وكان بين أيديهم أن يعرفوا السائغ منه، والحق أن العلم كالنور لا ينتفع فيه إلا الذين أوتوا بصرا يميزون به وينظرون، وكذلك لابد لإدراك العلم من بصيرة نافذة، وقلب يخضع للحق؛ أما إذا كانت البصيرة غير نافذة، والقلب قد ران الله عليه، فإنه لا يدرك، وإن كسب السيئات يضع غلافا على القلب يمنعه من إدراك الحق؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى شأن الضالين: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين] فأسباب العلم لا تكفى للوصول إلى الحقائق، بل لابد معها من قلب منير، والذين أوتوا الكتاب لم يكن أكثرهم على ذلك من الإخلاص فى طلب الحقيقة والإذعان لحكمها؛ ذلك لأن الشهوات تحكمت فى قلوبهم واستولت على نفوسهم، فجعلتهم يبتغون الباطل، ويطلبونه طلبا شديدا؛ ولهذا جعل الاختلاف مع وجود العلم أساسه البغى فيما بينهم، إذ إنهم يبتغون بالأمر السيطرة والسلطان واحتيازا للسيطرة الدينية؛ ولذا قال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى ظلما وتحاسدا، وتغالبا بالباطل بينهم.

وهؤلاء جاءهم العلم ولم يلازموه ولم يصاحبوه ولم يذعنوا لحكمه؛ ولذا لم يقل سبحانه «أوتوا العلم» بل قال: ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إذ قد جاءهم ولم يردوا موارده العذبة، والعلم كالمطر الغزير لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا النفوس الطيبة، فأولئك الظالمون جاءهم العلم، ولم يكونوا علماء يخشون الله، ولم يكونوا أولى العلم الذين يشهدون بوحدانية الله.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آيات الله تشمل آياته الكونية الدالة على وحدانيته، وآياته المنزلة الداعية إلى شريعته، والمبينة لها. والمعنى: من يكفر بآيات الله جاحدا غير مذعن لحكمها طامسا لداعى الفطرة فى قلبه فإن الله محاسبه ومعاقبه، والله سريع الحساب. فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قائم مقام الجواب المحذوف، والسياق هكذا: ومن يكفر بالله فإن الله معاقبه ومحاسبه، والله سريع الحساب، وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب، وعلى العلم الكامل للمحاسب وهو الله سبحانه وتعالى، فهو لا يحتاج إلى فحص وبحث، وتدل على قيام البينات القاطعة ، إذ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم بما اقترفوا، بل تشهد عليهم قلوبهم بما جحدوا، وختم الكلام عن أهل الكتاب بهذه العبارة السامية للإشارة إلى أن اختلافهم لا محالة راجع إلى كفرهم، وأن الكفر له عقاب بعد حساب سريع مؤكد ، ونتيجته عذاب أليم، وأسباب العلم حجة عليهم، وليست حجة لهم. اللهم لا تجعلنا ممن أضله الله على علم، ووفقنا للهداية، وأنطق ألسنتنا بالحق، واهدنا سواء الصراط.

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ



ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

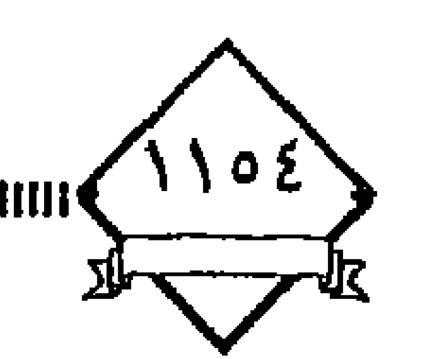
ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، واختلافهم على أنبيائهم بعد أن جاءتهم البينات من ربهم؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه محاجتهم للنبى ﷺ، وأشار إلى أنها محاجة ليس أساسها الإذعان للحق إذا تبين، بل أساسها محاولة طمس الحق، واللجاجة بالباطل؛ وذلك لأن المجادلة قسمان: قسم يراد به طلب الحق وتمحيصه، ودراسة الأمر من كل نواحيه، وتبادل الأدلة ليستبين من بينها نور الحق، وهذا القسم محمود لا شك فيه. والقسم الثانى لا يقصد به طلب الحق، بل يقصد به الدفاع عن فكرته من غير نظر إلى كونها حقا أو باطلا، فهو يجادل ليغالب خصمه، لا ليهتدى إلى أقوم المناهج؛ ومن ذلك النوع الأخير مجادلة أولئك الذين اختلفوا من أهل الكتاب، ومجادلة أولئك الذين جحدوا بالآيات من المشركين الذين قال الله سبحانه وتعالى فى أمثالهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ [النمل] وإذا كان جدل هؤلاء من ذلك النوع الذى لا يقصد به رفع منار الحق أو طلب الحق، فإن النبى ﷺ بأمر ربه طلب إليهم أن يخلصوا فى طلب الحقيقة كما أخلص هو؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ المحاجة: أن يتبادل المتجادلان ما يعتقده كل فريق أنه حجة بأن يقدم كل واحد حجته، ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعمه الحق الذى لا شك فيه. والمعنى: فإن حاجك أهل الكتاب، ومن لف لفَّهم، وسلك مثل طريقهم، فلا تسر معهم فى لجاجتهم؛ فهم لا يطلبون الحق مخلصين فى طلبه لا يبغون بدله، ولا يريدون غيره؛ بل إنهم قد شاهت عقولهم، وتأشبت بالغرض المردى نفوسهم وكلامهم هو التمويه الكاذب ولذلك لا

تُجارهم فى هذه اللجاجة، واطلب تصفية قلوبهم من الغرض والهوى، وابدأ بنفسك فبين سلامة مقصدك ونيتك: ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾. والوجه المراد به الذات؛ لأنه هو الذى تكون به المواجهة، وهو مجمع محاسن الجسم؛ فالتعبير به عن الجسم تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل. ومعنى أسلمت وجهى: أخلصت وسلمت نفسى وتفكيرى لله سبحانه وتعالى، فلا أفكر إلا فى الله، ولا أطلب الأمر إلا لله، ولا أقصد فى طلبى إلا وجه الله. ومعنى قوله: ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أى قد أسلم الذين اتبعونى وارتضوا الإسلام دينا؛ فقد أخلصوا فى طلب الحق وأسلموا وجوههم لله تعالى. وإن إسلام الوجه لله تعالى وحده فيه إشارة إلى التوحيد، وأن محمدا وأتباعه لا يعبدون إلا الله، وفوق ذلك لا يطلبون أى أمر من الأمور إلا لوجه الله تعالى؛ وتكون هذه الجملة السامية كقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران].

وإذا كان النبى ﷺ وأتباعه قد أخلصوا لله ذلك الإخلاص فى العبادة فإن الأساس الذى تبنى عليه المجادلة بالتى هى أحسن، أن يطلب منهم النبى ﷺ أن يكونوا على مثل تلك الحال من الإخلاص فى طلب الحقيقة؛ ولذا أمر الله نبيه بأن يطلب إليهم ذلك، فقال سبحانه: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾.

أهل الكتاب: هم اليهود والنصارى؛ لأن أسلافهم قد أوتوا الكتاب أى أعطوه كاملا وأخذوه كاملا، وإن كانوا مع ذلك قد نسوا حظا مما ذُكِّرُوا به. والأميون هم المشركون، وجاء التعبير عن المشركين بالأمّيين؛ لأنهم أولا تغلب فيهم الأمية؛ إذ قليل منهم من يقرأ ويكتب، وليست لهم علوم؛ ولذا كان يقول العرب عن أنفسهم؛ نحن أمة أمية، ولأنهم لم يعرف لهم كتاب يرجعون إليه فى أحكام دينهم. وفوق ذلك هذا التعبير فيه توبيخ لليهود والنصارى؛ إذ إنهم بعدم تسليمهم للحق وإذعانهم له تساووا مع أولئك الذين كان يسميهم اليهود



أُمّيين ولا يحترمونهم، ويقولون عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ... (٧٥)﴾ [آل عمران] . ومعنى النص الكريم: قل لأهل الكتاب والمشركين: إذا كنت قد أخلصت فى طلب الحق فهل أخلصتم؟

والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ للحضِّ على أن يسلموا وجوههم لله ويخلصوا فى طلب الحقيقة كما أخلص الرسول وأصحابه، وكأن النبى ﷺ يوجههم إلى أن يطلبوا الحقيقة مجردين أنفسهم من كل هوى وغرض وتعصب، بدل أن يحاولوا الإلحان بالحجة والمغالبة بالقول، وأن يستمروا على اللجاجة فى الجدل. وبهذا يتضمن الاستفهام معنى جليلا وهو أن يبين لهم النبى ﷺ أن العبرة فى طلب الحقائق ليس بالأدلة تصطنع، والحجج تزوَّر، إنما العبرة بإسلام الوجه والإخلاص فى طلب الحقيقة، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: «وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبق من طرق الاستدلال طريقا إلا سلكته: هل فهمتها؟ لا أُمَّ لك!» ويكون الاستفهام حينئذ عند الزمخشرى من قبيل التوبيخ على عدم الإخلاص.

وعندى أن الاستفهام بمعنى الحض، والمعانى على أى حال متقاربة. ولقد بين سبحانه نتيجة الإخلاص إن أخلصوا فقال:

﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ والمعنى: إن أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا دينهم لله، ولم يلاحظوا فى طلب الحقيقة عصبية مذهبية أو جنسية، فقد اهتدوا أى سلكوا طريق الحق، ومن سار على الدرب وصل. وقد فسرها بعض العلماء بمعنى يهتدون، وعبر بالماضى لتحقق الهداية تحققا كاملا. وعندى أن نفس ذلك الإخلاص، وهو إسلام الوجه لله تعالى هو الهداية الحق، فمن أسلم وجهه لله تعالى مخلصاً فى طلب الحق، فقد اهتدى حقا وصدقا؛ إذ إن ذلك الإخلاص هو روح الدين وغايته، فمن وصل إليه فإنه لا محالة سيتبع الدين الذى يوصل إليه وهو الإسلام.

هذا إن أخلصوا، وإن تولَّوْا أى أعرضوا عن هذا الإخلاص، وانصرفوا إلى المثارات البيانية يثيرونها ليطفئوا نور الحق، فما من حجة تهديهم، وما من آية ترشدهم، وقد أديت ما وجب عليك وهو التبليغ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ وقد بلغتهم فالمحاجة معهم لا تجدى؛ لأنهم مكابرون، والمكابر لا تزيده قوة الحجة إلا إصراراً وعنادا ولجاجة؛ فإن أعرضوا فأعرض عنهم، واتجه إلى المخلصين طلاب الحقيقة تهديهم وترشدهم، وتأخذ بيدهم إلى ما فيه صلاحهم فى الدنيا وثوابهم فى الآخرة. ثم ذيل سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

والمعنى أنه سبحانه وتعالى عليم علم من يبصر بالعباد، يعلم نفوسهم ما يهديها وما يرديها، وما يصلحها وما يُجدبها، وعليم بنفوس هؤلاء المتمردة التى لا تبغى سدادا، ولا تريد رشادا، وعليم بمسالكهم فى الدنيا، وأعمالهم التى أركستهم فى ذلك الضلال المتكاثف، والذى يزيده إمعانهم فى الإنكار والجحود ظلاما، وعليم بما يصيبهم فى الآخرة. فهذا التذييل لتلك الآية الكريمة فيه عزاء للنبى عن كفرهم وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار بسوء مصيرهم.

وقبل أن نختم الكلام فى هذه الآية الكريمة نقرر أن جمع أهل الكتاب والأميين فى دعوة النبى ﷺ إشارة إلى عموم رسالته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً... (٢٨)﴾ [سبأ] ولقد قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[١] وقال ﷺ: «كان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»[٢] ولقد قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه

(١) رواه الدارمي: السير - الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا (٢٣٥٨)، وأحمد: مسند الأنصار (٢٠٣٥٢)..

(٢) هذه الرواية تفسر قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت إلى الأحمر والأسود» يعني: «إلى الناس كافة»، وبالأول رواها مسلم في صحيحه باللفظ المشار إليه في التخريج السابق. مسلم: المساجد ومواضع الصلاة فيها (٨١٠)، النسائي: الغسل والتيمم (٤٢٩)، أحمد: باقي المكثرين: (١٣٧٤٥)، الدارمي: الصلاة (١٣٥٢).

الأمة يهودى ولا نصرانى، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار»(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذه بعض أعمال أسلاف الذين كانوا يحاجون النبى ﷺ، وقد ذكرت تلك الأعمال للدلالة على أنهم لا يطلبون الحق، وإنما يلجون فى الباطل، وقد ذهبت لجاجتهم إلى درجة أن يقتلوا الداعين إلى الحق، فقتلوا بعض النبيين، وقتلوا بعض الذين يدعون إلى القسط. وقد ذكر سبحانه لهم وصفا، ثم ذكر من أعمالهم عملين يتصلان بوصفهم؛ أما الوصف فهو أنهم يكفرون بآيات الله، أى يكفرون بالحجج والبينات المثبتة لوحدانية الله، ولرسالة رسله وصدق دعواتهم، فهم لا يكفرون فقط بالله، بل يكفرون مع ذلك بالآيات الدالة المثبتة، وهذا أقصى ما يصل إليه الضالون، لا يهتدون إلى الحق، ويغلقون عقولهم فلا يمكن أن تصل إليها دعوة الحق، ويمنع الغرض مداركهم من أن تفهم ما تشير إليه الآيات البينات وأمثال هؤلاء لا تجدى معهم محاجة، فهم قوم بور، كما عبر القرآن الكريم عن أمثالهم، وإنهم لكفرهم بالحق وعنادهم، وصم آذانهم عن أن تستمع إلى الداعى إليه اندفعوا فعملوا عملين وهما: قتل النبيين، وقتل الدعاة إلى القسط؛ والقسط هو الحق والميزان والاعتدال والمعقول فى كل شيء، وهؤلاء اليهود قد قتلوا بعض النبيين كيحيى بن زكريا عليهما السلام فكيف يقال إنهم قتلوا النبيين، ولم يقل بعض النبيين؟ والجواب عن ذلك أنهم استهانوا بمقام النبوة، ومقام الدعوة إلى الحق، فاعتدوا ذلك الاعتداء على بعض النبيين، ومن فعل ذلك مع البعض فقد اعتدى على مقام النبوة فكأنما قتل كل الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... (٣٢)﴾ [المائدة].

---

(١) رواه مسلم: الإيمان - وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (٢١٨)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٧٨٥٦).

ولماذا ذكر سبحانه وتعالى كلمة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق أبدا؟ والجواب عن ذلك أن هذا تصريح بموضع الاستنكار، فموضع الاستنكار اعتداؤهم على الحق بالاعتداء على النبيين، وللإشارة إلى أنهم بما طمس الله على بصائرهم صاروا أعداء للحق لا يألفونه، ولا يريدونه ولا يخلصون فى طلبه. وذكر سبحانه كلمة الحق بصيغة التنكير فقال ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لعموم النفى، بحيث يشمل الحق الثابت، والحق المزعوم، والحق الموهوم، أى لم يكونوا معذورين بأى نوع من أنواع العذر فى هذا الاعتداء، فلم يعتقدوا أنه الحق، ولم يزعموه، ولم يتوهموه، بل فعلوا ما فعلوا وهم يعلمون أنهم على الباطل، فكان فعلهم إجراما فى باعثه، وإجراما فى حقيقته، وأبلغ الإجرام فى موضوعه.

هذا قتل الأنبياء، وهو أفظع جرم فى هذا الوجود، ويليه ومن جنسه قتل الدعاة إلى الحق، والقسط الذى هو الميزان فى كل شىء، فإن قتل هؤلاء كقتل النبيين منشؤه صمم الآذان عن سماع الحق، وإعراض القلوب، والتململ من أهل الحق والتبرم بهم. وقد قال ﷺ: «بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، بئس القوم قوم يمشى المؤمن بينهم بالتقية»[١]! وروى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح سأل رسول الله ﷺ: أى الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ فقال الرسول ﷺ: «رجل قتل نبيا، أو من أمر بمعروف ونهى عن المنكر»[٢].

(١) ذكره القرطبي في تفسيره وقال روي عن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس»وذكره بتمامه. [تفسير القرطبي: سورة آل عمران (٢١)]. وفي كنز العمال (٥٥٨٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣٦٧٤) في مسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه. وراجع الدر المنثور - ج٢ ص١٣.

ولماذا قال سبحانه: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ مع أنهم حتما من الناس؟ والجواب عن ذلك أن هذا للإشارة إلى أنهم ليسوا بأنبياء بل من الناس غير المبعوثين، وفى قرنهم بالأنبياء، وإثبات أن الاعتداء عليهم قرين الاعتداء على الأنبياء إشارة إلى بيان منزلتهم، وأنهم يعملون عمل النبيين وأنهم حقيقة ورثة الأنبياء، بالقيام بحق هذا الواجب المقدس؛ فإن لم يقوموا بهذا الواجب فليس لهم من وراثة الأنبياء شيء.

وقد ذكر سبحانه عقاب هؤلاء وهو العذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى أن جزاءهم فى الآخرة عذاب مؤلم ينزل بهم.

وفى هذا الجزء من الآية بحثان لفظيان:

أحدهما: دخول الفاء فى خبر الذين وهو: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ وقد دخلت الفاء لأن الجملة طلبية، والجملة الطلبية تحتاج إلى الفاء لتصلح خبرا فى كثير من الأحيان؛ ولأن الاسم الموصول فى معنى الشرط، وخبره فى معنى الجواب، وإذا كان الجواب جملة طلبية فإن الفاء تدخله.

والثانى: هو فى التعبير بقوله تعالى عن العذاب: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ مع أن البشارة لا تكون إلا فى الأخبار السارة؛ لأن البشارة والبشرى الخبر السارّ الذى تنبسط له بشرة الوجه؛ والجواب عن ذلك أن هذا التعبير من قبيل التهكم؛ وذلك لأن هؤلاء الضالين من بنى إسرائيل وغيرهم مع أنهم جحدوا، وفعلوا بالأنبياء ودعاة الحق ما فعلوا، وكانوا يقولون: نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه، وأن لهم البشرى بجنسهم لا بعملهم؛ فالله يقول له: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى أن البشرى التى يرتقبونها بسبب المحبة التى يدعونها هى عذاب أليم وليست بنعيم مقيم، وليس هذا العذاب فى الآخرة فقط، بل إنه فى الدنيا بفساد جماعتهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾:

الإشارة إلى هؤلاء الذين يحاجون بالباطل، ولا يسلمون وجوههم لله، ولا يذعنون للحق، ويقتلون الأنبياء، ويقتلون دعاة الحق؛ هؤلاء بسبب هذه الصفات

وهذه الأعمال حبطت أعمالهم، أى بطلت وأصبحت لا تنتج إلا شرا لصاحبها، كالدابة التى تأكل شر الثمار حتى ينتفخ بطنها من سوء ما تأكل، وَحَبْطُ الأعمال أن لا تنتج خيرا لصاحبها، وأن يكون الجزاء عليها شرا، وأن تكون نتيجتها سوءًا، فيحاسب الله الفاعلين على نياتهم التى طويت فى صدورهم وعملوا الأعمال باسم الخير، وهى للشر ، وأولئك الأشرار يبطل الله أعمالهم ويحبطها، فجزاؤها شرّ فى الآخرة بعذاب أليم، وفى الدنيا بذهاب دولتهم وسلطانهم؛ لأن الإعراض عن الحق، ومعاقبة من ينطق بكلمة الحق، وقتل الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، من شأنه أن يفسد الدولة، وإذا فسدت الجماعة ذهبت القوة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى ليس لهم أى ناصر، فالنفى المستغرق مع تأكيده بمن الزائدة، يفيد أنه لا يمكن أن يكون لمن يقتل الداعى إلى الخير ناصرٌ مطلقا؛ لأن الناس لا يثقون به ويتقونه ولا يطمئنون إليه، ولا يمكن أن يعيش امرؤ هنيئا إلا بثقة من الناس. ولقد قال ﷺ: «خير الناس آمَرُهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم»(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(١) رواه أحمد: مسند القبائل (٢٦١٦٥).

قد بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة عن ماضى اليهود من أهل الكتاب أنهم اختلفوا بغْيًا بينهم مع أن أسباب العلم متوافرة بين أيديهم، ولكن البغى ومجاوزة الحد إن سكنا فى رءوس قوم أذهب عنهم الهداية، وتحكمت فيهم الغواية مهما تكن أسباب العلم قائمة؛ وبين سبحانه أيضا أنهم قوم غير مخلصين فى طلب الحقيقة، وأنهم لو أخلصوا لوصلوا، وأن محاجتهم للنبى ﷺ منبعثة عن الهوى والغرض. وفى هذه الآيات يبين سبحانه صورة حسّية عن مناقشتهم للنبى ﷺ؛ يكون الحق محسوسا بين أيديهم ويعرضون بعد أن تتبين الحجة ناصعة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هذه الآية نزلت فى طائفة من اليهود، دعاهم النبى ﷺ إلى الدين الحق فأعرضوا ، ودعاهم ليحكم بينهم كتاب الله فأعرضوا، ولكن ما كتاب الله الذى دعاهم إليه؟ روى فى ذلك ابن جرير الطبرى روايتين:

إحداهما: أن المراد من كتاب الله التوراة، فهى فى أصلها كتاب من عند الله، وإن حرفوه وغيروه؛ ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ دخل مَدْرَاسَ اليهود، وهو بيت تدارسهم، فدعاهم إلى الله، فقال قائلهم له: على أى دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم، فقال القائل: إن إبراهيم كان يهوديا، فقال الرسول الكريم ﷺ: «هَلُمَّ إلى التوراة فهى بيننا وبينكم» هذه هى الرواية الأولى. وإطلاق كلمة ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ على التوراة باعتبار أصلها، وباعتبار أن الجزء الذى كان التحاكم إليه فيها هو من الجزء الباقى الذى لم يدخله تحريف.

والرواية الثانية: أن كتاب الله هو القرآن؛ وذلك لأن طائفة من اليهود تحاكموا إليه ﷺ ليحكم بينهم بحكم القرآن، فلما تبين لهم الحكم وأنه على غير هواهم أعرضوا ونَأَوْا بجانبهم عن سماع قول الحق والإنصات إليه.

وأيامّا كان الكتاب المشار إليه فى الآية فالأمر دليل على أنهم لا يذعنون لحق ولا يهتدون بهدى، بل هم قوم غلبت شقوتهم، وغلب هواهم على تفكيرهم وطمس الله على أبصارهم وبصائرهم، فهم لا يهتدون، ولا ترجى منهم هداية، فلا تعجب إذا لم يؤمنوا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعبير قرآنى معناه لقد رأيت وتحققت وعجبت من أمر أولئك الذين أُوتُوا نصيبا من الكتاب كيف يدعون إلى حكم الحق فيتولون ويعرضون. والاستفهام داخل على الفعل المنفى، وهو استفهام إنكارى تعجبى، فهو نفى دخل على فعل منفى، ونفى النفى إثبات، إذ إن نفى عدم الرأى معناه ثبوت الرؤية، وسيق الكلام على ذلك النحو لتأكيد الأمر، وللتعجب، ولبيان أنه ما كان يصح أن يقع، ولكنه وقع.

وقوله تعالى: ﴿أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يشير إلى أمرين:

أولهما: أنهم يتعلقون باسم الكتاب ولكن لا يأخذون به؛ فالنصيب المراد به الجزء المعنوى من الكتاب، وهو أنهم تلقوا كتاب التوراة وأخذوا منه ترديده وذكره، ولم يأخذوا منه الهداية والإيمان.

وثانيهما: أنهم حرفوا هذا الكتاب وغيروه، فما عندهم هو نصيب من الكتاب أى جزء منه، وليس كل الكتاب.

وعبر هنا بقوله تعالى: ﴿أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وفى الآيات السابقة قال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران] وذلك لأن الكلام هنا فى الذين كانوا يعاصرون النبى ﷺ، والذين كانوا يعاصرون النبى ﷺ لم يكن عندهم قطعا إلا حظ من الكتاب، ولم يكن عندهم كل الكتاب؛ أما فى الآيات السابقة فقد كان الكلام فى الذين عاصروا النبيين السابقين من بنى إسرائيل، وقد كان عندهم الكتاب كله، ومع

ذلك ضلوا على علم، وذلك لسيطرة الهوى على قلوبهم، وغلبته على نفوسهم، فبغوا وطغوا، وقتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس.

دُعِيَ أولئك اليهود إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم، وقد كانت النتيجة أنهم لم يذعنوا للحق كما قررنا، بل تولوا عنه، أو تولى فريق منهم عن الحق؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أصل تولى الأمر أو الشخص الإقبال عليه، والانصراف إليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ... ﴿٥١﴾﴾ [المائدة] أى من يتخذ منهم ولاية ونصرة، ويقبل عليهم فهو منهم. وإذا عُدِّى هذا الفعل بـ «عن» أو قُدرت فى القول كانت بمعنى الانصراف عن الأمر وعدم الإقبال عليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]. والمعنى فى هذه الآية هو من هذا القبيل، أى أنه بعد الدعوة إلى تحكيم كتاب الله تعالى ينصرفون عن الحق، ويولونه أدبارهم، بدل أن يولوه قلوبهم.

وعبر هنا بِثُمَّ التى تفيد التراخى للإشارة إلى تباين حالهم مع ما كان ينبغى منهم؛ وذلك لأنهم ليسوا أمّيين أو جاهلين فيعذروا، بل هم قوم أهل علم ودين، ونزلت بين أيديهم كتب السماء، فهم كانوا جديرين بأن يرضوا بحكم الكتب المقدسة، ولكنهم بدل أن يخضعوا ويذعنوا أعرضوا، واستمروا فى غيهم يعمهون، فكان هذا التفاوت بين ما كان ينبغى، وما هو كائن، سببا فى التعبير بثم المفيدة للتراخى بين المعطوف والمعطوف عليه، والتباعد بينهما زمانا أو معنى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ قال بعض المفسرين: إنه تأكيد لمعنى التولى، والحق أنها أفادت معنى جديدا، إذ أفادت أمرين:

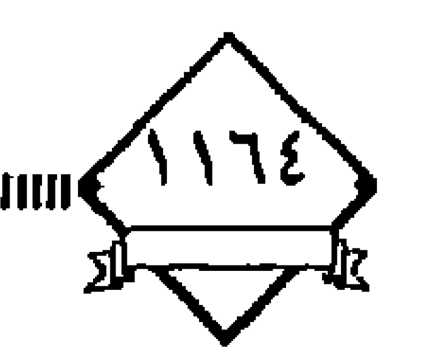
أولهما: أن حال هؤلاء الناس حال إعراض دائم عن الحق، فليس توليهم إذ دعوتهم إلى أن يحكم كتاب الله بينهم أمر عارض لحال وقتية اقتضته، بل الإعراض صفة مستمرة لفريق منهم لا تنفصل دائما عن تفكيرهم.

الأمر الثانى: أن تلك الحال المستمرة الدائمة من الإعراض هى سبب توليهم عن الحق عندما يدعون إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم.

والقرآن الكريم ينصف الحق فى أخباره، كما هو الحق فى ذاته؛ ولذلك لم يعمم الحكم على كل الذين أوتوا الكتاب بل قرر أن التولى كان من فريق منهم، ولم يكن من كلهم؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة].

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾ فى هذه الآية يبين سبحانه السبب فى أنهم لا يقبلون على الخير ولا يعملون بالحق، وهو اعتقاد أنهم لن يعاقبوا عقابا أليما، ولن يعذبوا عذابا شديدا؛ وذلك لما ركز فى نفوسهم من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم لا يحاسبون إلا بمقدار ما يحاسب الأب ولده المدلل، وحبيبه المختار، إذا رأى مخالفة أو عنادا فإنه لا يجافيه ولا يعاقبه، ولكن يقربه ويعاتبه؛ فمعنى ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾: ذلك الإعراض عن الحق، والتولى عن الداعى إليه، واللجاجة فى الباطل؛ بسبب أنهم يقولون لن تمسنا النار إلا أياما معدودات. وليس المراد إحصاء الأيام، بل المراد الاستخفاف بالعقاب والاستهانة به، وعدم الالتفات إلى وعيد الله، وزعمهم الباطل أنهم ينالون ما وعد به من ثواب ونعيم مقيم من غير عمل يعملونه، ولا كسب يكسبونه، فهم بهذا قد استناموا إلى الأمانى وغرتهم الأوهام.

ولماذا كان الاستخفاف بالعقاب وعدم الاهتمام بالوعيد سببا فى الإعراض عن الحق؟ الجواب عن ذلك أن الحق يصل إليه المؤمن بأحد أمور ثلاثة: إما بإشراق النفس، واستقامة القلب، وسلامة الفكر من الهوى والغرض، وذلك شأن من زكت نفوسهم وعلت قلوبهم؛ وإما شكر للنعمة، ووفاء لحق المنعم، وذلك



شأن عباد الله الأخيار؛ وإما خوف العقاب والحساب، وذلك شأن المتقين وأولئك قد حرموا الأول والثانى، فلم يبق إلا الثالث، فاستهانوا بالعقاب فكانوا قوما بُورا. وإن المؤمن يجب أن يصون نفسه دائما بخوف العقاب، وأن يغلب الخوف على الرجاء؛ فإنه إن زاد الرجاء عن الخوف تسربت الاستهانة إلى النفس وإذا تسربت الاستهانة هانت النفس فأركست فى السيئات، وارتكبت الموبقات؛ وذلك شأن كثيرين من المنتسبين للأديان، وشأن كثيرين من المسلمين فى هذه الأيام. وإنه يجب على المؤمن ألا يغتر، ولا يأخذه الغرور فيستهين بعقاب. ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى غير هذه الآية على اليهود فى زعمهم أنهم لا يعاقبون إلا أياما معدودة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقال غررت فلانا أى أصبت غرته ونلت منه ما أريد بسبب ذلك، والغرة: الغفلة والغفوة. ومعنى ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أصاب موضع الغرة والغفلة منهم فى دينهم ما كانوا يفترون أى يكذبونه متعمدين قاصدين.

وإن الأوهام التى ترد على النفس وتستولى على القلب تدفع إلى الضلال، وكذلك شأن هؤلاء اليهود: تعصبوا تعصبا شديدا لدينهم، وأبغضوا غيرهم بغضا شديدا، حتى إنه لا يتصور أن يهوديا أحب غير يهودى لغير مأرب من مآرب الدنيا، أو غاية من غاياتها؛ وحتى لقد حسبوا أن الديانة جنس، واندفعوا تحت تأثير ذلك التعصب إلى اعتقاد أوهام، ثم تأييد هذه الأوهام بأكاذيب افتروها، ثم تكاثفت تلك الأكاذيب جيلا بعد جيل، حتى أصابت غرة وغفلة فى عقولهم، فاعتقدوا ما لا يعتقد؛ اعتقدوا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، واعتقدوا أن الجزاء بالجنس لا بالعمل؛ وهذا ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي

دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ما استمروا على افترائه جيلا بعد جيل. ولقد رد الله سبحانه وتعالى زعمهم بإثبات أن الثواب والعقاب بالعمل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ كيف: يستفهم بها عن الحال، أى ما حالهم وما شأنهم إذا جمعهم الله رب العالمين، ليوم لا ريب فيه؟ لا شك أنهم يفاجأون بذهاب غرورهم الذى اغتروه، وضلالهم بسبب استمرار افترائهم الذى أحدثوه فدلاهم فى غرورهم؛ وإنه فى هذا اليوم الذى لا ريب فيه توفى كل نفس ما كسبت أى جزاء ما كسبت، وهم لا يظلمون أى لا ينقصون مما فعلوه شيئا، فسيجزون بالخير الحسنى، وبالشر السوءى.

وفى الآية الكريمة بعض البحوث اللفظية نشير إليها واحدا واحدا؛ لأن فى بيانها توجيها إلى معانٍ دقيقة فى النص الكريم:

أول هذه الأمور: الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ فإنها هى ما تسمَّى فاء الإفصاح، وهى التى تفصح عن شرط مقدر، أى أنه إذا كانت العقوبة المقررة عليكم أياما معدودات فى اعتقادكم مهما ارتكبتم، فماذا تكون حالكم إذا كانت المفاجأة التى لم تقدروها وطُمس عليكم فلم تعلموها؟.

وثانى هذه المباحث اللفظية قوله تعالى: ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾ فإن التعبير بلفظ الجمع فيه إشارة إلى معنى المساواة التامة، وأنه لا فضل لجنس على جنس، وإضافة هذا الجمع إلى رب العالمين، خالق الناس أجمعين يزكى هذه المساواة؛ لأنه خالق الجميع، ورب الجميع، وجامع الجميع يوم القيامة، فالجميع بين يديه سواء فى الأصل والتكوين وفى الربوبية والحفظ، وفى الجمع يوم القيامة فيكونون سواء فى الحساب والعقاب والثواب، وكل وعمله.

وثالث هذه الأمور: تنكير «يوم» فى قوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ فإن ذلك التنكير للتهويل، وبيان عظم شأنه وأنه يوم عبوس، وأنه مع شدته وشدة

الحساب لا ريب فى وجوده ولا شك. وذكر قوله: ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ فى هذا المقام لأن من اليهود طائفة تنكر البعث، فالتأكيد لأجل هذه الطائفة المنكرة الملحدة فى دين الله، الخارجة على كل أديان السماء، والباقون إن اعتقدوا بعقولهم لم يذعنوا بأفعالهم.

ورابع هذه المباحث اللفظية فى التعبير بقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ إسناد التوفية إلى ما كسبت وعدم ذكر الجزاء، فيه إشارة إلى عدل الله اللطيف الخبير، وهو مساواة الجزاء للعمل، وكأن المثاب يُوفَّى عمله، لا جزاء عمله، وذلك لشدة المساواة بينهما. وقد أكد سبحانه وتعالى معنى العدالة وأن كل شىء بالقسطاس المستقيم بقوله: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى سيجزون بأعمالهم، وسينالون ما يستحقون، وكل ما ينالهم بسبب ما فعلوا هو العدل عينه، ولا ظلم، فإذا ألقوا فى السعير فليس فى ذلك ظلم بل هو العدل. وإن سبب ضلال اليهود أنهم زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا.

فاللهم أرنا عيوب أنفسنا، وجنِّبنا الاغترار فى ديننا، إنك سميع الدعاء.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾

بين سبحانه وتعالى اعتزاز المشركين بقوتهم الدنيوية وغلبهم وسلطانهم، وذكر أنهم فى غرورهم كفرعون ذى الأوتاد، واعتزازه بقهره لشعبه، وطغيانه فى

ملكه؛ إذ يقول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]. ثم أشار سبحانه إلى طغيان أهل الكتاب، واختلافهم على النبيين، وقتلهم بعض الأنبياء، وقتلهم الذين يأمرون بالقسط من الناس، وما كان ذلك الإعراض عن الحق بعد أن تبين لهم إلا لأن حُب السلطان والغلب قد استولى عليهم واستغرق نفوسهم، ولذلك كانوا إذا حاجّهم النبى ﷺ أو حاجّوه نظروا فى محاجتهم إلى الأمر من وراء ذلك الغرض، وتلك الشهوة؛ وقد أمر الله سبحانه نبيه بأن يقابل هواهم بإعلان إخلاصه فى طلب الحق، وإسلامه وجهه لله سبحانه! وفى هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ إشارة إلى أن الإخلاص للذات العلية، وطلب الحق إرضاء لله، لا لأحد سواه، فيه اتجاه إلى مالك الملك الذى يؤتى الملك من يشاء، فالإخلاص للحق جل جلاله، يؤدى إلى السلطان الحق من مالك الملك.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ الأمر للنبى ﷺ، ولكل قارئ للقرآن الكريم مؤمن بالله مذعن للحق، أن يضرع إلى الله تعالى ناطقا بهذه الحقيقة؛ فإنها الحق فى هذا الوجود، ولا يعرف مؤمن سواها؛ والمعنى فى هذا الدعاء الكريم الضراعة إلى الله تعالى ونداؤه بأنه مالك السلطان المطلق فى هذا الوجود، فليس فقط صاحب السلطان، بل إنه يملك ذات السلطان، يؤتيه ويعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء؛ أى يسلبه ممن يشاء ممن يكون السلطان فى يده. والملك هنا هو السلطان، وفسره بعضهم بالنبوة، وعبرعن النبوة بالملك عند هؤلاء باعتبار أن الملك الحق لازم من لوازمها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء] والظاهر أن المراد هو السلطان. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ﴾ نداء إلى الذات العلية بلفظ الجلالة، والميم المشددة فى الآخر قائمة مقام حرف النداء على ما قال الخليل وسيبويه. وقال بعض الكوفيين: إن الميم المشددة هى «أمَّ» بمعنى قصد، أى أقصدك يا مولاى بضراعتى، وأنت صاحب السلطان.

ولكن خطأ ذلك النظر الزجاج، وقرر أن معنى القصد ثابت بمجرد الالتجاء والدعاء. وقوله: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ نداء آخر وضراعة على تقدير أداة النداء، أى يامالك الملك، فكأن فى النص دعاءين: دعاء للذات العلية بلفظ الجلالة، وقد اشتمل على كل معانى العبودية، والتنزيه والتقديس، والخضوع التام، والتسليم لله سبحانه وتعالى بكل معانى الألوهية؛ والدعاء الثانى لمالك الملك، وفيه كل معانى الإحساس بالربوبية، والضعف أمام جبروت الله سبحانه وتعالى وملكوته.

وقلنا إن قوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ أبلغ من صاحب الملك أو صاحب السلطان؛ لأن من يملك شأن أمة لا يملك مُلكها، ولكنه يستولى على ملكها ويده فيها ليست يدَ مِلك ولكنها يدٌ عارية؛ أما سلطان الله تعالى ذى الملكوت فسلطان مالك متصرف فى السلطان، يعطيه من يشاء عطاء عارية، ويمنعه ممن يشاء، ويسترد عاريته ممن يشاء؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾.

وهنا أمران لابد من الإشارة إليهما:

أولهما: التعبير عن إزالة الملك بقوله تعالى: ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ فالتعبير بالنزع مع تكرار كلمة ملك، فيه إشارة إلى أنه يأخذه منه بعد أن استقر فيه وثبت له وظن أنه لا مزيل لسلطانه، فيأتيه الله من حيث لا يحتسب، ويأخذ ملكه أخذ عزيزٍ مقتدر ثم إن فى النزع إشارة إلى أن من يؤتى سلطانا يطغى فيه ويبغى ولا يسير بسنة الحق والعدل لا يتركه طائعًا، بل لابد أن يُمكِّن الله منه من ينزعه من يده، وقد يأخذه منه من كان يأتمنه «ومِنْ مَأمَنِه يُؤتى الحَذِر». وفى كثير من الأحيان يكون السبب فى زواله هو من كان السبب فى طغيانه.

الأمر الثانى الذى تجب الإشارة إليه: أن الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته وما سَنَّ من نظم فى هذا الوجود، وما تسير عليه أعماله فى خلقه، لا يعطى الملك إلا من يستحقه، ويأخذ بالأسباب العادلة فى طلبه، ويقصد به رفعة قومه، ولا ينزعه إلا ممن يسىء ويطغى، ويفهم أن الملك متعة تشتهى وليس تَبِعات

تؤدى، فينزعه منه غيره، وكذلك سنة الله تعالى فى الحكم بين الناس: من لا يسوس الملك يُخلَعه، ومن حل محله ينزل به ما نزل بسابقه إن سار سيرته.

وكلمة «الملك» ليس المراد منها ما تعارفه الناس من الحكم بمقتضى الوراثة فى أسرة، إنما المراد بالملك السلطانُ فى هذه الأرض، سواء أكان سلطانا بالغَلب، أم كان سلطانا بالاختيار والانتخاب، أم كان سلطانا بالوراثة، وسواء أكان محدودا بجزء من الدولة، أم ناحية من نواحيها، أم كان عاما شاملا لكل أجزائها تجتمع فى يد صاحبه كل السلُطات فيها، فكل هذا ملك لأنه سلطان. وقد ذكر سبحانه بعد ذكر الملك يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء العزة، فقال:

﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾ العزة ليست مرادفة للسلطان، وإن كان الأصل فى كلمة عَزَّ معناها غَلَبَ؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝٢٣ ﴾ [ص] ولكن العزة صارت تستعمل بعد ذلك فى معنى نفسى، وهو عدم الخضوع إلا للحق، والتسامى عن الخضوع الذى ينافى المروءة والخلق الكريم، وقد يكون ذلك فى ضعيف فى بدنه مستضعف عند الناس، ما دام قد علا عن الخضوع إلا لذات الله تعالى؛ وإن صهيبا وآل ياسر، وخباب بن الأرتِّ وغيرهم، كانوا وهم المستضعفون فى مكة الأعزاء فى أنفسهم؛ لأنهم لم يجعلوا قلوبهم مراما للأقوياء، فلا عزة إلا مع الإيمان بالله وحده، والاعتماد عليه وحده؛ ولذلك لا يكون المنافقون مهما يؤتوا من مال ونسب وسلطان إلا أذلاء. ولما قال المنافقون فى شأن المؤمنين: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ... ۝٨ ﴾ [المنافقون]. نفى سبحانه وتعالى عنهم العزة فقال سبحانه: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ [المنافقون]. وكيف يكون المنافق عزيزا وهو الذى جعل نفسه وفكره ولسانه ملكا لغيره؟ فهو قد سلب كل شئ حتى قلبه ولسانه.

ومشيئة الله تعالى فى العزة والذلة تسير على مقتضى حكمته، فهو لا يعطى العزة إلا لمن خلَّص قلبه من كل أدران الهوى والشهوة، فالشهوات مردية، ولا

يكون عزيزا بين الناس من يكون عبد شهوته؛ فإن العزة تبتدئ من النفس، فإن ضبَط المرء أهواءه وشهواته وسيطر عليها أعطاه العزة، فكان بين الناس عزيزا؛ ومن سيطرت عليه أهواؤه ومطامعه وشهواته كتب الله عليه الذلة، وكان الذليل وإن ظهر أنه العزيز؛ ولذا كان من حكمة السلف الصالح قولهم: «أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال».

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تسليم بأن ما يفعله الله تعالى دائما خير، وأن الخير كله بيده سبحانه وقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ معناه إنك وحدك الذى تملك الخير كله، فـ «ال» فى قوله «الخير» للاستغراق الشامل؛ فكل خير هو بيد الله سبحانه. والتعبير بـ «يد» هنا إشارة إلى الملكية التامة السيرة، فهو استعارة تمثيلية، فقد قرب سبحانه - ولله تعالى المثل الأعلى - لأذهاننا معنى سلطانه وكمال ملكه لكل الأمور، بحال من يكون الأمر فى يده وقبضته، ولا سلطان لأحد من الناس فيما بيده، وفى قبضته. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ شمول قدرته على الأشياء كلها: ما يتخذه الناس سببا للخير عندهم، وما يتخذونه سببا للشر عندهم. وفى الجمع بين قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ و ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إشارة إلى أمرين :

أولهما: أن كل ما يفعله الله تعالى هو خير، فلا يقال إن بيده الخير والشر، فإن الشر معنى نسبى بالنسبة للعبيد، ولكن بالإضافة إلى الله تعالى فإن الله لايفعل إلا خيرا. ولقد قال الزمخشرى فى هذا المقام ما نصه: «إن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه».

الأمر الثانى: إثبات أن الله تعالى خالق الأسباب، وهى الأشياء التى يستخدمها الناس للخير والشر، يحسنون فلا يقصدون إلا النفع فيكون ما مكَّن الله لهم فى الأرض نفعا للناس وخيرا، ويسيئون فيقصدون إلى نواحى الفساد فيكون ما يفعلونه فسادا وضررا عاما. وهذا أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكل ما فى هذا الوجود من أشياء وأعمال ومخلوقات تحت قدرة الله، وكله خير بالنسبة له سبحانه، والشر والخير بالنسبة لمقاصد الناس، ولانتفاعهم بما مكّن الله تعالى فى هذه الأرض. وإنه يلاحظ دائما أن الشر نسبى للناس، ولا يصح أن يقال فى فعل الله إلا أنه خير. ولقد بين سبحانه مظاهر قدرته فى الكون المحسوس فقال سبحانه مبتدئا بآياته جل شأنه فى الليل والنهار:

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ هذا مظهر حسى لقدرة الله تعالى فى هذا الكون. تولج معناها تُدخل، أى تدخل الليل فى النهار وتدخل النهار فى الليل. وقد فسر بعض العلماء دخول الليل فى النهار بزيادة الليل حتى يصل إلى أقصى الزيادة، وفى هذا الوقت ينقص النهار حتى يصل إلى أقصى النقصان، وكذلك دخول النهار فى الليل فمعناه أن يأخذ النهار جزءا من معدل النسبة بينهما وهو تساويهما، فيدخل النهار فى الليل. وفقد فسر الزمخشرى مع كثير من المفسرين دخول الليل فى النهار ودخول النهار فى الليل بالتعاقب بينهما بأن يكون الوقت نهارا ثم يصير ليلا، ويكون ليلا ثم يصير نهارا، ولكن كيف نسمى ذلك التعاقب دخولاً لليل فى النهار، ودخولا للنهار فى الليل؟ والجواب عن ذلك: أن الليل لا ينقلب نهارا دفعة واحدة، بل إنه يدخل النهار فى الليل شيئا فشيئا، فيبتدئ النور يدخل فى الظلمة شيئا فشيئا، يبتدئ الفجر الكاذب فالصادق، فتنفس الصبح لحظة بعد لحظة، والنور يغزو الظلمة حتى تنجاب غياهبها، فيكون الضوء الساطع؛ وكذلك لا يجيء الليل دفعة واحدة، بل يبتدئ الضوء يضعف من الأصيل حتى تجئ الغروب، ثم تجيء العشية، فيكون ظلام وتُمحى آية النهار.

وإن توجيه الأنظار إلى دخول الليل فى النهار، ودخول النهار فى الليل، سواء أكان بالمعنى الأول أم كان بالمعنى الثانى، فيه توجيه الأذهان إلى عظمة الكون وكمال سلطانه سبحانه وتعالى فيه، فما كان تعاقب الليل والنهار وتداخلهما إلا ظاهرة لدوران الأرض حول الشمس، وحركة الفلك الدوار المستمرة الدائبة بقدرة

الله تعالى وقيامه على كل شيء، وفى الليل تبدو الكواكب والنجوم، وتظهر آيات ذلك النظام العجيب المحكم الذى يسيره سبحانه بقدرته وحكمته.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هذا مظهر كونى حسى يدل على عظيم قدرة الله، وبيان أنه لا إرادة فى هذا الكون غير إرادته، وأنه القادر على كل شيء، يخرج الضد من ضده، وهو المبدع لكليهما، المسير لهما؛ فالله سبحانه يخرج الحيَّ من الميت، ويجعل من هذا الحيّ الذى أخرجه ميتا؛ وإخراج الحيّ من الميت ليس هو الخلق الأول الذى ذرأ الله به الأحياء، وهو خلق آدم من طين، فإن الخلق غير الإخراج؛ إذ الخلق إبداع وإنشاء ابتداء، والله هو الخلاق العليم، ولا خالق سواه، والإخراج تحويل فيه معنى الاستخراج والتوليد؛ وإخراج الله الحيّ من الميت قال بعض العلماء وهم الأكثرون: إنه إخراج الجسم النامى الذى يسير فى مدارج الحياة، من الجسم الجاف الذى لا تبدو فيه حياة، كإخراج الشجرة من النواة، والعود من البذرة؛ وإخراجُ الميت من الحى هو أيضا إخراج النواة الصلبة من الجسم الحيّ النامى، وإخراج البذرة الجافة من العود الحى الرطب. وقد يعترض على ذلك بأن النواة الجافة والبذرة الصلبة فيها حياة تولدت عنها تلك الحياة المحسوسة للنبات، وكذلك النطفة التى تبدو سائلا ليس فيه حياة فيها أحياء تتوالد فتكون ذلك الحيوان المحسوس. وقد يجاب عن ذلك بأن ذلك اصطلاح علمى، وإن الحياة التى تعرفها اللغة مظهر ذلك النماء المتدرج المستمر. وفى الحق إن إخراج الحيّ من الميت أمر محسوس مرئى كل يوم؛ فإن تلك الشجرة أو ذلك العود النامى يتغذى من الهواء والضوء والماء والتراب، وكلها جمادٌ لا حياة فيها، وما يتم التحول المتدرج فى الحياة إلا بتلك العناصر التى هى غذاء الحى، فهى إخراج الحى من الميت، وليس المراد من الميت من كانت به حياة ثم انتهت، إنما الظاهر من كلمة الميت هو ما لا حياة فيه؛ وإن إخراج الميت من الحى أمر واضح لا مجال للشك فيه؛ فهذا العود الأخضر يصير حطاما، وهذا الجسم الحيوانى يتحلل فيكون رميما ثم يكون ترابا.

وعلى هذا نقول إن إخـراج الحى من الميت ليس فلْق النوى بإخـراج النبات والشجر منه فقط، بل بهذا وبتدرج الحياة، وإدخال عناصر الغذاء التى تكون الحى وأكثرها من جـماد؛ ولذا قال سبـحانه فى آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام]

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذا مظهر رابع من مظاهر قدرة الله تعالى المحسـوسة بين الناس، وهو الرزق للعبـاد، وكلمة الرزق تشمل إعطاء الله عبـيده مـالا، وإعطاءهم جاها، وإعـطاءهم علما، وإعطاءهـم حزمـا ورأيا، وإعطاءهم صحـة، فكل هذه أرزاق يعطيها رب العـالمين. ولذا قال الراغب الأصفـهانى فى مفرداته: «الرزق يقال للعطاء الجارى تارة، دنيويا كان أم أخرويا، وتارة للنصيب، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى منه به تارة أخرى؛ يقال أعطى السلطان رزق الجند، ورُزقت علما؛ قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون] أى أنفقوا من المال والجاه والعلم».

فالله سبحانه وهو الرزاق ذو القوة المتين، قد وزع رزقه بين عباده بالقسطاس المستقيم؛ فمنهم من أعطاه صحة وعافـية، ومنهم من أعطاه مالا وحرمه من نعمة العلم، ومنهم من أعطاه جـاها وسلطانا، ومنهم من أعطاه أولادا تقر بـهم عينه، ومنهم من وهب له ذكرا حـسنا بين الناس. ومن قصر الرزق على المال فـقد ضل ضلالا بعيدا، كذلك المعترض الذى يقول:

كَم عاقلٍ عاقلٍ أعْيَتْ مذاهبُـه وجاهـل جاهلٍ تَلقّاه مرزوقـا
هذا الذى ترك الأوهامَ حائرةً وصيَّر العالِمَ النِّحْـريرَ زِنْديقـا

فما فى ذلك حَيْرة إلا فى رأس القائل، فتلك هى القسمة العادلة: حَرم هذا من المال وأعطاه علمـا، وحرم هذا من الولد وأعطاه ذكـرا بين الناس . . وهكذا؛ ولو اجتـمعت كلها فى واحـد، لكانت الحيرة، وعـلاجها التـفويض المطلق لرب العالمين .

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ معناه أنه ليس فوقه أحد يحاسبه، تعالى الله علوا كبيرا، وأن عطاءه كثير يعلو على العد والحساب، وهو يعطى من يشاء بسنة الحكمة والعدل والفضل، وإليه مصير كل شىء، ولا ينتج عمل عامل نتيجته إلا بفضل من الله. روى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال: «بسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب» فى هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن الملك كله بيد الله سبحانه وتعالى، وأنه هو الذى يعطى بعض عباده سلطانا، وهو الذى ينزع السلطان من أيديهم إن لم يحسنوا القيام عليه؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه أنه لا يصح للمؤمن أن يستعين بسلطان غير المؤمن على المؤمن لما يراه من قوة سلطان غير المؤمن، فإن

الملك بيد الله، قد يديل سبحانه من دولة الشرك والكفر[(١)]، ويكون لله ولرسوله الكلمة العليا؛ فكأن الآيات السابقة مقدمة، وهذه الآية نتيجة؛ أى أنه إذا كان الملك لله سبحانه، وهو مالك الملك، فلا يسوغ لمؤمن أن يدخل فى سلطان غير مؤمن وولايته؛ لأنه بذلك يخرج من ولاية الله مالك الملك إلى ولاية كافر أعير الملك، والعارية مستردة لصاحبها فى أى وقت، وهو الحق سبحانه الذى لا سلطان فوق سلطانه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أولياء جمع ولى، وهو من الولاء. وأصل هذه الكلمة بينها الأصفهانى فى مفرداته، فقال: «الولاء والتوالى: أن يحصل شيئان حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة، والاعتقاد. والوِلاية (بكسر بالواو) النصرة. والوَلاية (بالفتح) تولى الأمر. وقيل الوِلاية والوَلاية واحدة نحو الدِّلالة والدَّلالة». وعلى ذلك تكون كلمة ولى تطلق بمعنى الصديق وبمعنى النصير، وبمعنى من يتولى أمر غيره. وما المراد بها هنا؟ الظاهر أن المراد هو من يتولى أمر غيره، فمعنى ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نهى المؤمنين عن أن يدخلوا فى ولاية الكافرين وتحت سلطانهم وفى ظلهم دون ظل المؤمنين وسلطانهم؛ فإن على المؤمنين أن يكوِّنوا لأنفسهم دولة وولاية تظلهم، ولا يكون أحد منهم فى ولاية غيرهم والدليل على أن أولياء هنا معناها متولون الأمر قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن دون هنا بمعنى غير، وهذا يومئ إلى ترك ولاية المؤمنين ليكونوا فى ولاية غيرهم؛ فالمعنى إذن أنه لا يجوز لطائفة من المؤمنين أن يكونوا فى ولاية غير المؤمنين. وهنا إشارة بلاغية رائعة فى قوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وفى قوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنه من المقررات البيانية أن اللفظ إذا

---

(١) يُديلنا: من الدَّوْلَة. والإدالَةُ: الغَلَبَةُ. ودالَتِ الأيَّامُ: دارَتْ، واللّهُ تعالى يُداوِلها بينَ الناسِ. [القاموس المحيط - فصل الدال - الدولة].

أعيد معرفا بـ «أل» كان الثانى هو عين الأول، فإذا قلت: خاطبت رجلا، فأفهمت الرجل حقيقة موقفه، كان الثانى عين الأول، فتكرار المؤمنين بالتعريف بأل إشارة إلى أن الثانى هو عين الأول، وفى ذلك إشارة إلى أن المؤمنين الذين يدخلون ولاية غيرهم يتركون أنفسهم، ويتخذون من عدوهم نكاية لأنفسهم.

وإن النهى عن تولى المؤمنين لغير المؤمنين غير معلل هنا صراحة، وإن كان قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى أن تولى المؤمنين لغيرهم يكون نكاية لأنفسهم، وفى آية أخرى كان النهى معللا تعليلا صريحا؛ فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ... ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال].

ففى هاتين الآيتين تعليل صريح للنهى عن أن يكون المؤمنون أو بعضهم فى ولاية غير المؤمنين، وأن تكون سيوفهم وكل قوتهم لغير المؤمنين. والذى يستفاد من هاتين الآيتين أن السبب فى أنه لايجوز للمؤمنين أن يتولَّوْا غير المؤمنين بأن يكونوا فى ولايتهم، يتكون من ثلاثة أمور:

أولها: أن غير المؤمنين لا يمكن أن يرعوا حقوق المؤمنين حق الرعاية، بل لا يألونهم خبالا، وقد حققت الأيام ذلك؛ فإن المؤمنين الذين يخضعون للأمم الأوروبية كمسلمى يوغسلافيا مع قيامهم بحق إقليمهم فى نصرته لا يكادون يستمتعون بأى حق سياسى، ولا يتولون أعمالا إدارية إلا فى صغير الأمور.

وثانيها: أن الذى يكون فى ولاية غير المسلمين تكون نصرته وقوته لغير المسلمين؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إذ تكون كل قوته وكل نشاطه الإنسانى والاجتماعى لهم، وليس للإسلام منه شىء.

وثالثها: أن المسلمين الذين يكونون فى ولاية غيرهم يفتنون فى دينهم، ولو من قبيل العدوى وعدم تنفيذ أحكام الإسلام فى الدولة، وفى ذلك فساد أى

فساد؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى إلا تمتنعوا عن الدخول فى ولاية غير المسلمين تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

هذا، ويجب التنبيه إلى أن تولى المؤمنين لغيرهم ليس معناه المحبة، فإن بر المؤمن لغير المؤمن واجب إن تحقق السبب الموجب للبر؛ فقد قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى من يدخل فى ولاية الكافرين، ويترك ولاية المؤمنين فقد قطع صلته بالله سبحانه وتعالى قطعا تاما؛ لأن ولايـة المؤمنين هى ولاية الله تعالى؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾. وقد أولها بعض العلماء على حذف مضاف، والمعنى: فليس من ولاية الله فى شىء، وبعضهم قال: فليس من الصلة بالله فى شىء، ولكن لِمَ حذف المقدر، وجعل النفى عن ذات الله مباشرة؟ والجواب عن ذلك هو الإشارة إلى أن من دخل فى ولاية غير المؤمنين تاركا ولاية المؤمنين، فقد ترك ذات الله سبحانه وتعالى وكان مختارا لقوة الكفار دون قوة العزيز الجبار، فهو يعاند الله نفسه، ويحاد الله سبحانه، والله عزيز ذو انتقام، وهو ذو القوة المتين، وهو الناصر، فإن نصر فلا خذلان، وإن خذل فلا نصر: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران].

هذا حكم الجماعة الإسلامية أو بعضها فى الدخول فى ولاية غير المسلمين، ولكن قد يكون بعض الآحاد فى حال ضعف، وهم مضطرون لأن يعلنوا الموالاة لبعض الكافرين، فهل يسوغ ذلك؟ ذكر الله حكم هؤلاء فى هذا الاستثناء، فقال سبحانه: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى أن براءة الله سبحانه وتعالى من الذين يوالون الكفار ثابتة قائمة إلا فى حال الخوف وخشية الضرر المؤكد لبعض المسلمين

فإنه يجوز لهؤلاء أن يظهروا لهم الولاء، وهم بذلك يتقون ضررهم المؤكد؛ ومعنى: ﴿أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى تخافوا خوفا شديدا لضرر مؤكد، فتجعلوا إظهار الولاء وقاية تتقون بها الضرر؛ وقد أكد سبحانه وتعالى الخوف بالمصدر فقال: ﴿أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى يكون الضرر ثابتا لامجال للشك فيه، وألا يتجاوز الولاء المظهر واتخاذ الوقاية المؤقتة. و«تقاة» مصدر وقى على وزن فعلة، وأصله وقية، قلبت الواو تاء كما فى تؤدة أصلها وأدة، وتهمة أصلها وهمة.

وإن هذا النص يستفاد منه أن التقية جائزة، والتقية أن يظهر المؤمن غير ما يعتقد اتقاء الأذى الذى يتلف الجسم على أن يكون نزول الأذى مؤكدا، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ... ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل] على أن يكون ذلك مقصورا على الأحوال الأحادية لا الأحوال الجماعية، وعلى أن يجتهد الذين يكونون فى ولاية غير المؤمنين أن يخرجوا من ولايتهم وألا يبقوا مستضعفين فى الأرض؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء].

هذا، وإن التقية الأحادية أمر لا يعلمه إلا الله، وقد يمالئ بقلبه ولسانه رجاءَ رجاء كما يفعل بعض ملوك المسلمين ويدعى أنه يفعل ذلك تقية ودفعا للضرر؛ ولذا قال سبحانه محذرا هؤلاء، ومحذرا من يوالى الكفار بشكل عام: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾:

التحذير: هو التخويف لأجل الحذر واليقظة، والعمل على منع الأمر المخوف قبل وقوعه. والتحذير لا يكون إلا حيث يتوهم الشخص الآمن، ويعتقد أنه لا مخاف، ولا ما يثير الخوف؛ وإن مقام التحذير هنا واضح بين ؛ لأن أولئك الذين يوالون الكافرين يظنون أن ذلك من دواعى الأمن والاستقرار، والواقع أنهم

إن أمنوا الكفار ومالأوهم على هذا واختاروا ولايتهم دون المؤمنين، فإنهم لا يأمنون عقاب الله، فعليهم أن يحذروه .

ومعنى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ قال بعض العلماء فيه: إن الكلام على حذف مضاف وهو: عقاب الله أو نقمته، وعندى أنه لا حاجة إلى تقدير مضاف، بل إن التحذير من ذات الله، والتحذير من ذات الله يقتضى الخوف ووقوع الرهبة فى النفس من الذات العلية، كما يقول القائل ولله المثل الأعلى: احذر الأسد؛ فإنه لا يقدر: صولته ولا شدته، إنما يريد أن ذاته فى كل أحوالها مخوفة مرهوبة. وعبر سبحانه عن التحذير من ذاته العلية بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ للإشارة إلى تأكيد معنى المعاندة لله تعالى عند موالاة الكافرين، فإن كلمة نفس تقال لتأكيد التعبير عن الذات، كما يقول القائل: خاصمت زيداً نفسه، وغاضبت عمرواً نفسه؛ وللإشارة إلى أن ما ينزله الله تعالى مغيب غير معلن الآن؛ إذ إن التعبير بالنفس يكون لما يخفى فى أطوائها، كما قال الله تعالى عن نبيه عيسى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة].

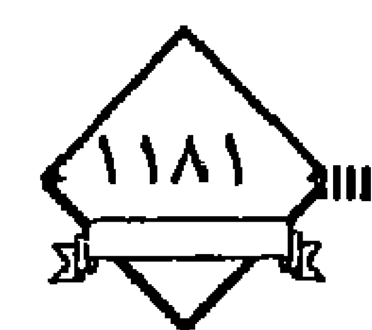
وهذا التحذير من ذات الله تعالى تحذير ممن يكون عقابه أدوم بقاء، ونقمته أكثر استمراراً؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى إليه وحده المآل وانتهاء أمر العباد، فلا يكون ثمة معقب لما يقول ويفعل، والمصير إليه حيث تذهب سطوة الكفار الذين يمالئونهم على المؤمنين ويوالونهم دون المؤمنين؛ فإن كانت للكافرين قوة ظاهرة فى الدنيا فهى حال ليست باقية، والمصير إلى الله والعاقبة للمتقين، وإن كان للكافرين عزة فى الأرض فاجرة، فالعزة الحقيقية لله ولرسوله وللمؤمنين .

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ كان التحذير والتخويف من الله سبحانه وتعالى، وقد أمر سبحانه نبيه بأن يبين لهم مقدار علمه بخفايا نفوسهم، وعلمه بالكون وما فيه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى أن علمه سبحانه وتعالى يعم الظاهر والباطن، وإن كون الأمر ظاهرا أو باطنا

إنما هو بالنسبة لنا، أما علم الله تعالى فإنه ليس فيه ظاهر وباطن، بل العلم كله سواء بالنسبة له سبحانه وتعالى وسيق إثبات علم الله تعالى وإحاطته الشاملة فى هذا المقام، لمقام التحذير أيضاً؛ لأن الذين يوالون الكافرين يظنون فى أنفسهم ضعفا وقد يظهرون أن ما يفعلون إنما هو تقية وخوف من الكافرين، والواقع أنهم يفعلون ذلك استخذاء وذلة، أو تملقا للأقوياء أو مداهنة لهم على أقوامهم، أو رجاء غرض دنيوى ينالونه، كما نرى فى عصرنا الحاضر، إذ نجد ناسا يبررون كل خيانة قومية ودينية، والدخول فى ولاية غير المؤمنين بالتقية وحال الضعف، وما هو إلا ضعف وازع الدين وفقد اليقين، ورجاء الدنيا الذليلة، وفرار من العزة والحياة السامية الكريمة حقا وصدقا؛ فأمر الله نبيه أن يبين أنه يعلم ما تخفيه الصدور، وما تختلج به القلوب، وما ينوون وما يقصدون، كما يعلم ما يبدون ويعلنون، وأن الله سبحانه محاسبهم على أعمالهم بنياتهم، لا بظواهر هذه الأعمال، ولا بما تتلوى به الألسنة، وإن كانت مخالفة لما تطويه القلوب.

وجعل البيان من النبى ﷺ بعد أن وجه سبحانه وتعالى الترهيب بذاته العلية؛ لأن ذلك التنويع من شأنه أن يربى المهابة، كما يقول ذو السلطان محذرا مخوفا: أحذركم مخالفتى، ثم يتركه لصفىٍّ من أصفيائه يبين له مدى سلطانه وقوته وعلمه.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فى هذا بيان شمول علم الله تعالى وشمول قدرته، فهو يعلم سرائر النفوس وظواهرها، كما بيّن فى الجملة السابقة، ويعلم الكون وما يجرى فيه من نجوم سارية، وأفلاك دائرة، وشمس مشرقة، وقمر منير، والسحاب وما تحمل، والرياح المسخرات بين السماء والأرض، ويعلم كل الأحوال، وكل الأزمان، وكل اللحظات، وجميع الأوقات، وما من شيء فى هذا الوجود إلا تحت سلطان علمه، وفى متعلق إرادته، وفى شمول قدرته؛ إنه فعال لما يريد؛ فكيف يتصور من عاقل أن يترك ولاية المؤمنين وهم أولياؤه، ويدخل فى ولاية الكافرين وهم أعداؤه؟ فإن كانت



الولاية للعزة والقدرة والسلطان والعلم ، فلله وحده العزة والكبرياء فى السموات والأرض. وقد ذكر سبحانه شمول القدرة بعد شمول العلم؛ لأن القدرة الكاملة لا تكون إلا عن العلم الكامل، فكمال القدرة من مظاهر كمال العلم. ولقد قال الزمخشرى فى معنى هذا النص الكريم: «هذا بيان لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ لأن نفسه، وهى ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتى، لا يختص بمعلوم دون معلوم، فهى متعلقة بالمعلومات كلها، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهى قادرة على المقدرات كلها، فكان حقها أن تحذر وتتقى، فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله فوكل همه بما يورد ويصدر، ونصب عليه عيونا، وبث من يتجسس على بواطن أموره، لأخذ حذره وتيقظ فى أمره، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أن العالم بالذات الذى يعلم السر وأخفى وهو آمن، اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك» ولقد بين سبحانه وقت تنفيذ عقوبته المؤكدة، وهو يوم القيامة، فقال :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ المعنى الجملى للنص الكريم: خافوا الله واحذروه، واخشوا حسابه وعقابه،وارجوا ثوابه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ظاهرا ثابتا واضحا، كأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخرة فيرى رأى العين، وما عملت من شر معلوما كذلك كأنه رئى بالحس والبصر، وتود كل نفس أن لو يتأخر أمدا طويلا بعيدا، وذلك لأن ما يخافه الإنسان يتمنى أن يتأخر ويؤجل؛ ليكون عنده أطول فسحة من الأمان. وهنا عدة مباحث لفظية تجلى المعنى:

المبحث اللغوى الأول - متعلق ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾: لقد ذكر العلماء ثلاثة توجيهات؛ أولها ذكره الزمخشرى أنه متعلق بـ «تود» والمعنى : تود كل نفس لو

أن بينها وبينه أمدا بعيدا أى زمنا طويلا وقت أن تجد كل ما عملت محضرا من خير أو سوء.

وهذا يؤدى إلى أن من عملت خيرا تود أمدا بعيدا، مع من عملت سوءا، مع أن رجاء الثواب يسوغ تمنى المسارعة لا تمنى التأجيل؛ ولهذا لا نوافق عليه.

والوجه الثانى: أنه متعلق بقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ بدليل قوله تعالى مكررا التحذير، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ مرة أخرى، ولكن يرد على هذا بعد القول، ومجيء جملة مستقلة بينهما، واختلاف القائل؛ فالأول من قول الله تعالى والتحذير من الله، والثانى من قول النبى ﷺ بأمر الله ولكن قد يرد هذا الاعتراض بأن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ معترضة بين كلامين متلازمين للمسارعة بإثبات شمول علم الله تعالى وقدرته.

التوجيه الثالث: أنه متعلق بمحذوف تقديره: اذكروا، وهذا أسلمها فى نظرى.

المبحث اللغوى الثانى - قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ أهى معطوفة على ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أم «ما» مبتدأ خبره «تود»؟ أظهر الأقوال أنها مبتدأ وجملة تود خبر، والمعنى: ما عملت: ما عملت من خير تجده محضرا، وما عملت من سوء تتمنى كل نفس أن يكون بينها وبينه أمد بعيد.

المبحث الثالث - الأمد اسم للزمان كالأبد يتقاربان، لكن الأبد كما قال الأصفهانى مدة من الزمان ليس لها حد محدود، ولا يتقيد، فلا يقال: أبد كذا؛ أما الأمد فمدة لها حد مجهول، إذا لم يضف إلى غاية معينة، فإن أضيف كان محدودا بهذه الغاية. والمعنى أن النفس التى تجد عملها السيئ محضرا تود لو يتأخر أمدا بعيدا، ولكن لا تحقيق لهذا التمنى.

ولقد كرر الله سبحانه التحذير من نفسه تذكيرا، وليكون فى بال المؤمن دائما، ولبيان أن ذلك التحذير من دواعى الرحمة كما هو من تربية الرهبة، فهو

قد ذكر تمهيدا لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فتذكير العباد وتحذيرهم من رحمته بهم حتى لا يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر، وختمت الآية بهذا التذييل الكريم؛ لإثبات أن عقاب المسيء وثواب المحسن من الرحمة، فليس من الرحمة فى شيء أن يتساوى المحسن والمسيء، ولإثبات أن ولاء المؤمنين ومعاداة الكافرين من الرحمة بالعباد، حتى لا يعم الظلم وينتشر الفساد. اللهم وحِّد الولاية الإسلامية، واجعل المسلمين جميعا بعضهم أولياء بعض.

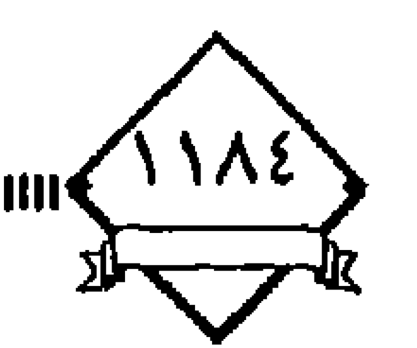
﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يؤمن المؤمن رغبة فى الثواب، ويؤمن المؤمن خوفا من العقاب، ويؤمن المؤمن إذعانا للحق، ومحبة للرب، وإخلاصا وخلاصا من أدران الهوى، ومآثم هذه الدنيا؛ وتلك أعلى المراتب، وأشرف المناصب، وبها يعلو المؤمن.

وفى الآية السابقة حذر الله المؤمن من نفسه، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فكانت هذه الآية تدعو المؤمن إلى الطاعة ولزوم الجماعة بالترهيب، وفيها إشارة إلى الترغيب فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وفى هذه الآية يدعو إلى الطاعة لا خوف العقاب ولا رجاء الثواب، ولكن لأن الطاعة تؤدى إلى أعلى منازل السائرين، وهى المحبة: محبة الله لعبده، ومحبة العبد لربه.

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله تعالى آية المحبة:



﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأمر للنبى ﷺ، وجعل سبحانه وتعالى الخطاب منه للنبى ﷺ إليهم لبيان شرف النبوة وعلوها، ومكانة الاتصال بينها وبين الله سبحانه وتعالى؛ إذ جعل اتباع الرسول يكون من نتائجه محبة الله تعالى.

وكون النبى ﷺ هو الذى يخاطب بذلك ويقرره، وأن الله تعالى يمضى ما يقرره، علوٌ بمقام الرسالة المحمدية، وبمقام النبوة؛ لأن فيه إشعارا بعظم محبة الله لنبيه، وأنها فوق كل محبة؛ فإذا كان من يتبعه يحبه، فهو إذن فى أعلى درجات المحبة؛ ولأن فيه بيان أقوى الاتصال؛ لأن خطابه لهم هو خطاب من الله لهم، بدليل أن المحبة من الله تجىء نتيحة لاتباعه الذى دعا إليه ﷺ.

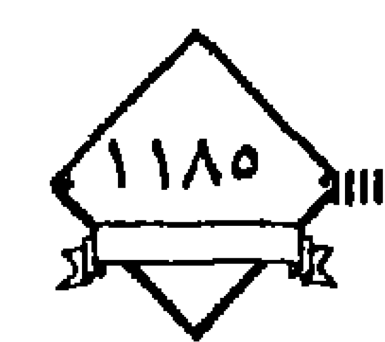
وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فيه إيجاز معجز، وهو إيجاز حذف دل عليه المقام؛ لأن المعنى: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى، وإن اتبعتمونى يحببكم الله؛ لأن جواب فعل الأمر فى معنى الجزاء، فكان ثمة فعل شرط مقدر؛ وإن هذه الجملة السامية تدل على ثلاثة أمور:

أولها: أن أول طرق محبة الله تعالى هو اتباع الرسول ﷺ؛ لأن طاعة الرسول طاعة لله تعالى جلت قدرته، وعصيان الرسول عصيان لله تعالى، وليس من المعقول أن يحب الله تعالى ويعصيه؛ ولذلك يقول الشاعر الصوفى:

تعصى الإلهَ وأنت تُظهـر حُبَّهُ	هذا لعَمْرِى فى القِيَاس بَدِيعُ
لو كانَ حُبُّك صادقًـا لأَطَعْتَـهُ	إنَّ المحِـبَّ لِمَنْ يُحِـبُّ مُطِيعُ

الأمر الثانى الذى يدل عليه النص الكريم: أن الطاعة ومحبة العبد لربه يترتب عليهما حتما محبة الله سبحانه وتعالى لعبده. وأى منزلة للطاعة أسمى من أنه يتبعها حتما محبة الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث الذى يدل عليه النص القرآنى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أن من يصل إلى مرتبة المحبة التى تبتدئ بالطاعة وتنتهى بمحبة الله تعالى يغفر له الله



سبحانه وتعالى كل ما كان له من تقصير سابق وإثم قد جلته المحبة عن القلب؛ وذلك لأن السيئات أدران تعلق بالقلب، فإذا وصل إلى درجة محبة الله تعالى، بعد قيامه بحق الطاعات، انصهر قلبه بهذه المحبة، وإذا انصهر القلب بالمحبة زال عنه كل خبث ومحى كل درن، فصفا، والله سبحانه وتعالى يغفر لمن يصل إلى هذه المرتبة. ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

وصفان كريمان للذات العلية : أولهما أنه غفور؛ أى أنه كثير الغفران لعباده؛ لأن فعول تدل على المبالغة، ووصف الله تعالى نفسه بهذا الوصف للإشارة إلى أنه يحب من عباده الطاعة، ويحب من عباده التوبة؛ فهو ليس كحكام الدنيا الذين يفرضون العقاب ولا يتمنون لرعاياهم الخلاص منه، بل يتمنون إنزال العقوبة بهم، والله سبحانه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم يقبل التوبة عن عباده، ويحب المغفرة، ولذلك وصف بالتواب؛ فالعقاب ليس لذاته، ولكن لكيلا يتساوى المسىء بالمحسن، وليحمل المسىء على الطاعة ويستمر المحسن على إحسانه.

والوصف الثانى الذى وصف به ذاته العلية: أنه رحيم. وكان من رحمته أن قبل التوبة وغفر الذنب، ومن رحمته أنه أرسل الرسل بالبينات ليقيموا القسط بين الناس، ويُعَلِّمُوا هذه الشرائع التى بها صلاح الدنيا، وبها تقوم على الخير والفضيلة؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وكان من رحمته أن سنّ العقاب للمسىء المستمر على إساءته الموغل فى الفساد؛ فإن من يفسد فى الأرض يكون من الرحمة عقابه، ومن لا يرحم الناس كان من مقتضى الرحمة بالناس أن لا يرحم؛ ولذا قال النبى ﷺ: «من لا يرحم لايرحم»[1].

---

(١) رواه البخاري: الأدب - رحمة الولد وتقبيله (٥٥٣٨)، ومسلم: الفضائل - رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٤٢٨٢).

وقبل أن نترك الكلام فى هذه الآية الكريمة، لابد من الإشارة الواضحة إلى أمرين:

أولهما: فى معنى الاتباع الذى يوجب المحبة، ومعنى ترتيب المحبة على الاتباع.

وثانيهما: التعريف بهذه المحبة التى يتصف بها العبد، وتترتب عليها محبة الله تعالى: أهى الطاعة أم شىء أعلى من الطاعة؟ وما محبة الله: أهى الرحمة أم أمر أعلى من الرحمة والإحسان، ولله الفضل والمنة فى كل حال.

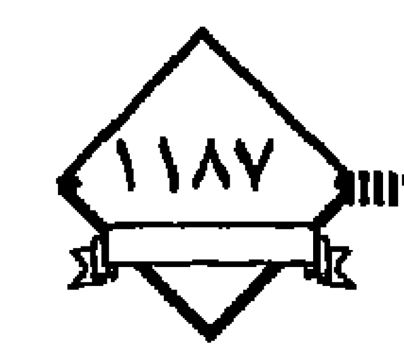
أما بالنسبة للأمر الأول؛ فإن النص الكريم ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ يفيد الطريق والغاية، أو الدليل والنتيجة؛ أما الطريق فهو اتباع الشريعة، وأما الغاية القصوى فهى محبة العبد لربه، ومحبة الرب لعبده، أى تبادل المحبة بين الخالق والمخلوق، وكل بما يليق به، وبما يتفق مع نوع وجوده؛ فواجب الوجود وذو الكمال المطلق جل جلاله محبته تليق بذاته العلية، وجائز الوجود الحادث المخلوق محبته حال يتفق مع حدوثه، ونقص وجوده.

وقد فصل الله الاتباع الذى يوجب المحبة السامية بعض التفصيل فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

فعلامات الاتباع التى يترتب عليها أن يحبهم الله ويحبوه، أربع:

أولها: أنهم أذلة على المؤمنين، وقد قال عطاء فى هذا : إنهم للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

والعلامة الثانية: أنهم أعزة على الكافرين، أى لا يخضعون للكافرين ولا يحالفونهم على المؤمنين، ولا يختارون أن يدخلوا فى ولايتهم ويتركوا ولاية المؤمنين.



العلامة الثالثة: الجهاد فى سبيل الله بالنفس واللسان والمال، وذلك هو تحقيق دعوى المحبة.

والعلامة الرابعة: أنهم لا يأخذهم فى الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب أخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة(١).

تلك هى آيات الاتباع الذى يوجب هذه المحبة، وقد وصف النبى ﷺ كمال الإيمان الذى يوجب هذه المحبة، فقال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»(٢) وهذا الوصف هو الجامع لكل الأمارات التى لا يند عنه(٣) شيء منها.

هذا هو القول فى الأمر الأول، وهو الاتباع الذى تترتب عليه المحبة. بقى أن نتكلم فى الأمر الثانى وهو التعريف بالمحبة التى تكون من الله للعبد، والمحبة التى تكون من العبد لله تعالى:

أما محبة الله فحال من أحوال الذات العلية لا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها وهى تليق بذاته الكريمة، وتتفق مع صفات الجلال والكمال التى يتصف بها واجب الوجود، والذى خلق بقدرته كل موجود، وهى غير الإحسان، وإن كانت من فضل الله، وغير الرحمة، وغير الرضا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلها لبعض عباده، والإحسان والرحمة يَعُمَّان كل موجود، والرضا وإن جعله جزاء أعلى للمحسنين، كما قال فى جزاء المؤمنين بعد ذكر الجنات والنعيم المقيم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة] نجد المحبة أكثر منه. وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فكان هذا دليلا على أنهما متغايران بالنسبة لذاته العلية، كما أن المدلول اللفظى لهما متغاير، وإن كانت المحبة تتضمن الرضا لا محالة، بل إنها لا تكون إلا حيث يكون أقصى الرضا، هذه إشارة إلى محبة الله لبعض عباده الذين اصطفاهم.

---

(١) جاء فى هامش الأصل: راجع فى هذا الجزء الثالث من «مدارج السالكين»، ابن قيم الجوزية، ص١٤.
(٢) البخاري: الإيمان- حلاوة الإيمان (١٥)، مسلم: الإيمان (٦٠).
(٣) أي لا يشرد. نَدَّ البعير يَنِدُّ نُدودا إذا شَرَدَ. لسان العرب - باب النون - ندد.

وأما محبة العبد لربه، فقد قال الحارث المحاسبي في تعريفها بأنها: الميل بكُلِّيته لربه، وإيثاره على نفسه وماله، ثم مرافقته له سرا وجهرا، ثم اعتقاده تقصيره في حقه مهما يؤدِّ من واجبات وطاعات.

ومحبة العبد لربه غير طاعته المجردة لأوامره ونواهيه، وإن كانت ملازمة للاتباع المطلق للأوامر والنواهي، **وفي الحقيقة إن طاعة العبد لربه لها مرتبتان: أولاهما**: الطاعة رجاء الثواب وخوف العقاب، **والثانية**: الطاعة محبة لله تعالى ولقد قال في هذا المعنى النبي ﷺ في وصف بعض أصحابه «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه». ولقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين المتقين: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴿٥٧﴾﴾ [**الإسراء**] فإن هذا النص الكريم دل على أن ثمة مقامين جليلين: مقام الطاعة رجاء الثواب وخوف العقاب، والطاعة بالتوسل إلى الله والتقرب منه، كما قال تعالى: ﴿**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾ وهذا مقام الطاعة محبة وازدلافا إليه سبحانه، وهذه هي الوسيلة المبتغاة، والمحبة المرتجاة، وإن المحبة تقتضي الأنس بذكر الله تعالى، فتكون النفس ممتلئة بالسرور لقرب الله، ومعرفة الله، وكمال العبودية له، والشعور بكمال ألوهيته، حتى يستغرق ذلك كل حسه، وكل نفسه وقلبه، ولا يكون موضع لتذكر سواه.

والمحبة هي غاية التصوف العالي وسمته وعنوانه؛ ولذا يقول ابن القيم في مدارج السالكين: «المحبة سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق، وقعد من سواهم على الرسوم».

والمحبة ثلاث درجات:

أولاها: استغراق النفس بذكر الله، فلا يرتفع إلى مقامه في القلب ذكر شيء سواه، ويصف الهروي في «منازل السائرين» تلك المحبة بأنها: تقطع الوساوس، وتسلي عن المصائب، وتثبت تلك الدرجة من الشعور بقوة الله، ومن اتباع السنة المحمدية، والشعور بالحاجة والفاقة إليه تعالى.

والدرجة الثانية: وهى أعلى من هذه فى درجات المحبة - هى التى يلهم فيها اللسان بذكر الله بعد امتلاء القلب، والجوارح بإيثار الحق، ويقول فيها ابن القيم: «فيها مطالعة الصفات، وشهود معانى آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة. وكل منها داع قوى إلى محبته سبحانه؛ لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وألوهيته، وعلى حكمته وبره وإحسانه، ولطفه وجوده، وكرمه وسعة رحمته، وسبوغ نعمه، فإدامة النظر فيها داع لا محالة إلى محبته»(١).

والدرجة الثالثة: المحبة التى يكون فيها الشهود بنور القلب. وجاء فى «منازل السائرين» فى هذه المحبة (هذه المحبة هى قطب هذا الشأن، وما دونها محاب نادت عليها الألسن، وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول).

هذه إشارات موجزة إلى ما يقوله أهل التصوف فى المحبة بين العبد وربه، وقد قبسنا منها قبسة نرجو أن تضىء فى هذا الموضوع، وإن كانت لا تدفئ.

وإن العبرة فى هذا الموضوع هى أن الشريعة لا يصح أن تنسى حتى فى أعلى مقام للمحبة، فإنها هى الدليل المرشد، والمصباح المنير لمن يريد أن يصل إلى درجة المحبة الحقيقية، وهى أعلى درجات الإيمان، وأقوى درجات الاتباع. فاتباع أحكام الشرع هو طريق المحبة عند أهل السنة الراشدين، وتنكب طريق الاتباع وادعاء الارتفاع عن التكليف هو مَخْرَف أهل الابتداع الضالين.

وإذا كان ذلك هو الحق، فإطاعة الله ورسوله هى فيصل التفرقة بين الحق والباطل وبين محبة الله ومحبة الضلال، وبين الإيمان والكفر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾.

الأمر للنبى ﷺ بأن يدعوهم إلى طاعة الله وطاعته، وهو معنى الاتباع فى الماضى، وتكرر الأمر بهذه الصيغة للإشارة إلى أن اتباع الرسول هو طاعة لله

---

(١) مدارج السالكين جـ٣ ص٢٥.

وللرسول، فمن اتبع الرسول لايطيع الرسول فقط، بل يطيع الله رب العالمين، وما كان الرسول ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، والسبب فى التكرار فى ذاته هو تأكيد المعنى الذى قررناه، وهو أن محبة العبد للرب ليس لها طريق إلا الاتباع، ولذا يقول الزمخشرى فى الكشاف: «من ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبته، ويصفق بيديه مع ذكرها، ويطرب وينعر ويصفق، فلا تشك فى أنه لا يعرف ما الله، ولا يدرى ما محبة الله. وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا لأنه تصور فى نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله ودعارته ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصورها».

وهنا إشارة بلاغية تتفق مع المقصد الأسمى من الآيتين الكريمتين، وهو إثبات أن محبة الله تعالى طريقها المستقيم الذى لا عوج فيه هو اتباع الرسول، وتلك الإشارة أنه سبحانه قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فقد ذكر الأمر بالإطاعة غير مكرر عند العطف، فلم يقل: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وعدم التكرار يومئ إلى أن الطاعة واحدة، وأن إطاعة الرسول إطاعة لله تعالى، كما صرح سبحانه وتعالى بذلك فى قوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] وإن من إعجاز القرآن الكريم أن تكون العبارات والإشارات البيانية كلها تتجه إلى مقصد النص الكريم وترشح له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أى فإن أعرضوا عن اتباع ما تدعوهم وهو اتباعك الذى به تكون إطاعة الله ومحبته، فإنهم لا ينالون محبة الله تعالى؛ لأنهم كافرون؛ إذ تعمدوا ألا يطيعوك، وأنكروا أن اتباعك طريق محبة الله رب العالمين. **ففى هذا النص الكريم دلالة على أن محبة الله لا ينالها إلا من يتبع الرسول بأبلغ ما يكون من بيان، وذلك لوجوه:**

أولها: أنه سبحانه عبر بأنه لا يحبهم، وليس بعد نفى الحب إلا البغض والسخط، فالله ساخط على من لا يتبعون الرسول، وإذا كان رب العالمين ساخطا عليهم، فمن المؤكد أنه لم يعتبر حالهم حال من يحبونه ويبتغون رضاه.

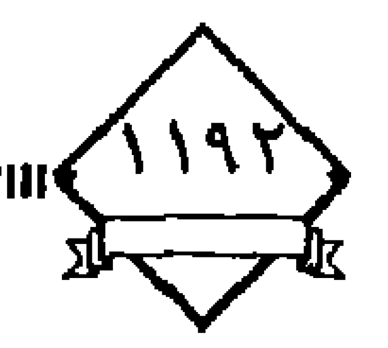
وثانيها: أنه عبر عن تركهم اتباع الرسول بالتولى وهو الإعراض، وكيف يكون طالبا لمحبة الله من يعرض عن طاعة الله.

وثالثها: أنه سبحانه وتعالى عبر عنهم فى حال الإعراض متعمدين منكرين بأنهم كافرون، وكيف يكون محبا لله ومحبوبا من الله من يكون كافرا بأوامره، منكرا لرسالته، معاندا لرسوله! إن ذلك فى القياس غريب.

اللهم وفقنا لاتباع نبيك لنرتفع إلى مقام من يحبونك، ولننال سمو محبتك. فقد قال نبيك وقوله الحق: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إنى أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول إنى أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء فى الأرض»[1].

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ

(١) رواه مسلم: البر والصلة والآداب - إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده (٤٧٧٢)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٨٩٨٤)، ورواه البخاري: التوحيد - كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة (٦٩٣١).



وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

أشار سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة إلى اختلاف المشركين وقتالهم المؤمنين وإلى اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ...﴿١٩﴾﴾ [آل عمران]، ثم أشار سبحانه إلى محبته لعباده الذين يطيعونه ومحبتهم له، ورأفته سبحانه وتعالى بعباده، وسبق رحمته لغضبه وفى هذه الآيات: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بين سبحانه وتعالى وحدة الإنسانية التى ما كان يسوغ معها خلاف إلا ممن ضل سبيل الهداية، ووحدة النبوة والرسالة الإلهية، التى وحدت بها شريعته تعالى، وما كان يسوغ بعد هداية الله تعالى خلاف إلا إذا كان الضلال. ثم بين سبحانه من يجتبيهم ومن يصطفى ويحب من عباده، وكيف يحبونه هم ويخلصون لذاته العلية: بأن يسلموا وجوههم له سبحانه وتعالى، ويحررون أولادهم لعبادة الله تعالى.

وقد ذكر سبحانه وتعالى فى هذا أربع قصص، كلها يصور قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته في خلقه، ولا تخلو واحدة منها من خوارق العادات.

وأولى هذه القصص: قصة مريم البتول، وكيف كانت خالصة لله تعالى مذ حملت بها أمها، حتى ولدت، ولزمت المحراب، وكفلها زكريا، وكيف كانت مرزوقة مكفولة يأتيها رزقها رغدا بغير حساب.

والقصة الثانية: قصة زكريا، وكون الله سبحانه وتعالى قد وهب له يحيى، مع أنه كان قد بلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر، وبذلك خرقت العادة المعروفة، وهو أن العاقر لا تلد قط، وهذا قد أنجب وقد أصابته الشيخوخة، وامرأته عاقر لا تلد.

والقصة الثالثة: قصة ولادة السيد المسيح عليه السلام، وقد كان ذلك أعظم خرق للعادات، إذ ولد من غير أب، وفى ذلك تتسلسل القصص الثلاث فى خوارق تبتدئ بالخارق القريب من المعروف ثم بغير المعروف مطلقا، ثم بالخارق الغريب الذى لم يعرف قط لغير عيسى بعد أن انتشر بنو آدم فى الأرض.

القصة الرابعة: قصة حياة عيسى، التى اشتملت على خوارق كثيرة كانت فى ذاتها أغرب من ولادته؛ منها: إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله على يديه، وهكذا غيرها.

وقصص القرآن ليس المقصود منه مجرد السرد التاريخى، كما يسجل التاريخ وتدون قصصه، إنما قصص القرآن المقصود به **أولا: العظة والاعتبار**، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ... ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، **ثم ثانيا: إثبات صدق الرسول ﷺ**؛ وذلك لأن هذا القصص الحق يتفق مع الصادق من كتب أهل الكتاب يجرى على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلم، ولم تعرف ملازمته لأحد من أهل الكتاب حتى يطلعه على ذلك، بل كان المنقطع فى بلد أمى ليس به علم يدرس، ولا فلسفة تبحث. ثم المقصود **ثالثا: بيان وحدة الشرائع الإلهية السماوية**؛ لأنها جميعها تنبعث عن مصدر واحد، وهو رب السموات والأرض وما فيهما؛ فبيان قصص النبيين السابقين وما كانوا يلقون فى الدعوة إلى التوحيد دليل على أن التوحيد هو الوحدة الجامعة بين كل الشرائع، وهو الحد الفاصل بين ما هو من السماء، وما هو من إفك أهل الأرض. وفى بيان قصص النبيين تسلية للنبى ﷺ، وتسرية عن شدائده بالاستبصار فيما لقيه غيره من عنت.

وفى قصص النبيين وكفر أقوامهم مع الآيات الحسية التى أتى بها النبيون بيان أن الكفر ليس منشؤه نقصا فى البينات، ولكنه ينشأ من الجحود وغلبة الهوى، والإعراض عن مناهج الاستدلال الصحيح. ولعل أوضح مثل لذلك، الآيات التى أجراها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام؛ فما كانت وراءها آيات تقرع الحس، وتدل على خوارق العادات كهذه الآيات، ومع ذلك كفروا وما آمنوا، وما ازدادوا إلا طغيانا وعتوا.

هذه تقدمة نقدم بها قصة أولئك الأبرار الأطهار، ونبتدئ بما ابتدأ به القرآن الكريم من قصة مريم البتول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾:

معنى الاصطفاء: طلب الصفوة من كل شيء، ولذلك قالوا إن معناها اختارهم مؤثرا لهم على غيرهم، وفى التعبير بالاصطفاء إشارة إلى أن آدم ونوحا، وآل إبراهيم وآل عمران هم صفوة الناس والتعبير بعلى فى قوله تعالى: ﴿**عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ إشارة إلى معنى التفضيل على غيرهم من الناس؛ فهم صفوة الناس، وهم مفضلون على كل الناس. وآل إبراهيم هم أسرة إبراهيم بفروعهم، سواء منهم من أووا إلى مكة وكان منهم صفوة الخلق محمد ﷺ، ومن كانوا فى الأرض المقدسة وكان منهم النبيون من بعد؛ وآل عمران هم ذرية عمران، وهو أبو مريم البتول، ومن ذرية عمران السيد المسيح عليه السلام الذى خلقه رب العالمين بكلمة منه هى «كن» .

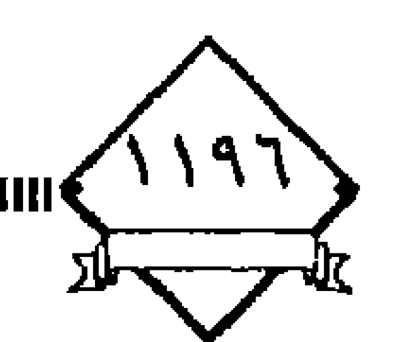
وإن فى ذلك التسلسل إشارة إلى أن الخليقة لم تخل من هاد يهديها إلى الحق وإلى صراط مستقيم؛ فقد ابتدأت الهداية بأبى الإنسانية آدم كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴿١٢٢﴾﴾ [طه] فهو أول خليفة، وأول هاد للإنسانية بمقتضى أبوته، وبمقتضى اجتباء الله تعالى له، وقد حكم بأنه هداه، واهتدى به بنوه من بعده.

ثم جاء نوح من بعده بسنين وقرون لا يعلمها إلا علام الغيوب، وهو الأب الثانى للخليقة، فاصطفاه رب العالمين للهداية كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ... ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام].

ثم جاء من بعد ذلك بقرون لا يعلمها إلا فاطر السموات والأرض أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فكان هو وآله من أقارب كلوط وذريته التى جاءت من بعده فيها صفوة الخلق وفيهم النبوة، فكان منهم إسماعيل ومحمد فى فرع، وإسحاق وبنوه فى فرع آخر، وكان من هؤلاء آل عمران وهم ذرية عمران وأقاربه كزكريا ويحيى عليهما السلام، ومن تلك الدوحة النبوية عيسى عليه السلام الذى ختمت به تلك الشعبة من أولاد إبراهيم. وتسلم الرسالة الخالدة إلى يوم القيامة الفرع الثانى من أولاد إبراهيم وهم ذرية إسماعيل، فكان محمد، وبه ختمت الرسالة الإلهية فى هذه الأرض. وعمران هذا هو أبو مريم كما نصت على ذلك الآية التالية، ولا حاجة لفرض أنه عمران آخر، وهو أبو موسى، فذكر اسم واحد فى مقام واحد يشير إلى أن المدلول واحد، ولا حاجة إلى فرض التغاير. وكلمة الآل تشمل الأقارب من العصبات، والذرية.

ولقد بين الله سبحانه بعد ذلك تسلسل هذه الصفوة المختارة بعضها من بعض فقال: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

الذرية هم الفروع من الأولاد وأولادهم مهما نزلوا، وأصلها من مادة «ذرأ»، وقيل من «الذرو»، وقيل من «الذر»، وكل هذه الألفاظ تنتهى إلى التكوين والتفريع فرعا من بعد فرع؛ ومعنى النص الكريم أن أولئك المصطفين الأخيار بعضهم ذرية من بعض، فهم متصلو النسب بسلسلة لا تنقطع؛ فنوح من ذرية آدم، وآلُ إبراهيم من ذرية نوح، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم، وهكذا، فهى سلسلة متصل بعضها ببعض فى النسب والهداية. ويترتب على أن بعضهم من بعض أن تتشابه صفاتهم فى الخير والفضيلة ما داموا جميعا مصطفين، وما داموا جميعا من سلسلة ونسبة واحدة. وقد قال بعضهم إن معنى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن



بَعْضٍ﴾ أنهم متشابهون، كقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ ... ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة] فهم يشبه بعضهم بعضا، وهم ذرية واحدة لآدم. والحق أن ذلك المعنى يجيء بالالتزام من المعنى الأول فليس مغايرا له من كل الوجوه.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى كمال إحاطته، وإلى أنه إذ اصطفى هؤلاء اصطفاهم على علم كعلم من يسمع، أى أنه علم دقيق لا يخفى على الله شئ فى الأرض ولا فى السماء، وإن ذلك النص الكريم فيه تمهيد لما سيتلى من بعد، وهو قول امرأة عمران، فقد قال تعالى حاكيا عنها:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم علم من يسمع فى الوقت الذى قالت فيه امرأة عمران ذلك القول، فهو سبحانه وتعالى سمع قول امرأة عمران ذلك القول، ونَذْرَها ذلك النذر، وقد عقدت العزم على أن يكون ما فى بطنها خالصا لله سبحانه وتعالى؛ ومعنى النذر التزام التقرب إلى الله تعالى بأمر من جنس العبادات المفروضة؛ وقد نذرت هذه السيدة الكريمة لله، أى التزمت لله أن يكون ما فى بطنها محررا، أى خالصا لله سبحانه وتعالى ولخدمة بيته المقدس؛ فمعنى «محررا» أى مخلصا للعبادة والمناجاة، ومن أخلص للعبادة فقد صار عتيقا من كل رق فى الدنيا، فهوعتيق من رق الهوى، ومن رق الرجال، ومن رق ذوى السلطان؛ لأنه يكون خالصا لمالك الملكوت، ومن خلص له تعالى فقد عتق من كل رق فى الدنيا.

وعمران: هو أبو مريم بهذا النص، وهو عمران المذكور أولا كما ذكرنا، وفرض المغايرة بأن يكون الأول عمران أبا موسى، وأن عمران هذا هو أبو مريم، تكلف لا حاجة إليه، وليس فى النص ما يدل عليه.

قصدت امرأة عمـران تلك العبادة واحتسبت هذه النية راجـية ما عند ربها، وأول رجائها أن يقبل نذرها؛ ولذلك تضـرعت إليه أن يقبل فقالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أى أضرع إليك أن تقبل نذرى، فإنك سمعت ما قلت، وما حـدثت به نفسى، ومـا احتسـبت به القربى عندك، فكان النذر بذاته عـبادة، وكان الدعاء بالقبول عبادة أخرى، فإن الدعاء مخ العبادة، خصوصا فى ذلك المقام الروحانى السامى الجليل، والـتقبل هو الأخذ بالأمر فى طريق القـبول، حتى يتم القبول، فكأنها ما كانت تطمع فى القبول بادئ ذى بدء، بل تطمع فى أن ينظر فى الأمر نظرة رضا حـتى ينال القبول، وتلك مرتبة الصـديقين يستصغـرون أعمالهم بجوار رضـا الله. ولقد كانت إجابـة الله تعالى لهذه العبـادة التى طويت فى ثنايا النذر، والعبادة الأخرى التى طويت فى ثنايا ذلك الدعـاء الضارع، ما حكاه بقوله تعالى من بعد لما وضعتها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

وهى فى نذرها وفى ضراعتها لقبول هذا النذر كانت تفرض أن الحمل ذكر، لأنه هو الذى يصلح لسدانة المسجد الأقـصى والبيت المقدس، ولكنها عند الولادة تبين أنهـا أنثى، فذكرت ذلك، وأشارت فـى ذكرها إلى تقديرها وفرضـها؛ ولذا حكى الله عنها أنها قالت:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾ أى أنها قدرت الحـمل ذكرا، وقدرت لذلك أن يكون فى خـدمة البيت وأنها لذلك تتحسر؛ لأنه لا يستطيع المولود بعد أن تبين أنه أنثى الخدمة، فليس فى هذه الخدمـة المقدسة الذكر كـالأنثى، فإن الأنثى لا تستطيع ذلك. وقـوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ جملة مـعترضة بين كـلاميها؛ وهى تشـير إلى أن الله تعالى أعلم منها بما وضعت، فليس لها هذا الاعتذار لأن من تعتذر إليه، وتتحسر بين يديه أعلم منهـا بما وضعتـه؛ لأنه هو الذى خلقه وجـعله أنثى، وهو أعلم بما يصلح له، وهو وحـده العليم بما هيّـأ له فى لوح القدر، فـإذا كانت لا تسـتطيع خدمة البيت كـالذكر فقد اختارها رب العالمين ليكون منها عـيسى عليه السلام من

غير أب؛ ولذا قال الزمخشرى فى هذا: «قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيما لموضوعها . . ومعناه والله أعلم بالشىء الذى وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهى جاهلة بذلك لا تعلم عنه شيئا». وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾ إما من كلام الله فيكون فى الجملة المعترضة، ويكون المعنى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى أعطيت فى الشرف والمكانة والعبادة بل هو دونها، وهذا هو الظاهر؛ وإما أن يكون من كلامها وهو غير الظاهر؛ إذ يكون الأولى حينئذ التعبير بقولها: وليس الأنثى كالذكر لأنها ترى الذكر أفضل.

ومع أن هذه التَّقِيَّة تتحسر على أن مولودها لم يكن ذكرا كما قدرت؛ ليكون فى خدمة بيت الله تعالى كما نوت، فقد رضيت بما وهب الله تعالى، وضرعت إليه أن يهديها ولذا قالت :

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فهى قد اختارت الاسم راضية بما أُعطيت، قال الزمخشرى فى الكشاف: «وإن اختيار الاسم فيه تقرب إلى الله تعالى؛ لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة والخادم، فأرادت بذلك التقرب إلى الله، والطلب إليه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها، وأن يصدق فيها». ولذا طلبت إلى ربها أن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم. ومعنى الإعاذة أن تكون فى ملجأ من الله تعالى يعصمها من الشيطان؛ وذلك لأن التعوذ الالتجاء. فمعنى أعوذ بالله ألجأ إليه، وأتخذ منه معاذا؛ ومعنى أعذته بالله من الشيطان جعلت الله تعالى معاذا له منه، وهذه الإعاذة كانت دعاء من الله تعالى، فكان هذا الدعاء عبادة أخرى. وهكذا اقترنت ولادة مريم وحملها من قبل بعبادات متضافرة متوالية مستمرة، وضراعة تدل على خلاص النفس وإسلام الوجه لله تعالى.

والشيطان: ما يوسوس فى النفس، وهو يجرى من الإنسان مجرى الدم. والرجيم أى المطرود المنبوذ من رحمة الله من وقت قال له رب البرية: ﴿قَالَ

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحجر]. وإن الله تعالى عصم بهذا الدعاء مريم وابنها من أن يمسهما الشيطان. وقد ورد فى ذلك بعض الآثار.

ولقد قال الزمخشرى فى ذلك: يروى من الحديث «مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»(١) فالله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان فى صفتهما كقوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر] واستهلاله صارخا من مَسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومى:

لِمَا تُؤذنُ به الدنيا من صُروفها ... يكونُ بكاء الطفلِ ساعةَ يُولَد

تلك ضراعات امرأة عمران عند ولادة مريم البتول، وقد تقبل الله نذرها، وأجاب دعاءها؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ قلنا إن التقبل هو أخذ الأمر بالنظرة الراضية المستحسنة غير المستهجنة، ويكون القبول نتيجة له، وقد ضرعت أم مريم أن يؤخذ نذرها مأخذ الرضا والاستحسان من ربها، فيقبل، وقد أجاب الله دعاءها، وعلى ذلك لا يكون التقبل بمعنى القبول، ولقد قال فى ذلك الراغب الأصفهانى: (إنما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، ولم يقل: بتقبل حسن؛ للجمع بين الأمرين التقبل الذى هو التدرج فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة).

هذا هو قبول النَّذر، أما إجابة الدعاء وهو ألا يمسها الشيطان أو لا يكون له سلطان عليها؛ لأنها من عباد الله المخلصين، فقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنبَتَهَا

(١) متفق عليه؛ رواه بهذا اللفظ البخاري: تفسير القرآن (٤١٨٤)، ومسلم: الفضائل - فضائل عيسى عليه السلام (٤٣٦٣).

نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أى أنشأها برعايته ومحبته وحَصَّنها، وكانت حالها كالنبات ينبته رب العالمين فينمو يوما بعد يوم حتى يستوى على سوقه، فكذلك كان مع مريم: تولى رعايتها من المهد، وغذاها بغذاء من الروح، فبعدت عن كل شر، وغذاها ونماها جسميا، فجعل لها رزقا مستمرا يأتيها من حيث لا تحتسب، ولا يحتسب كافلها، أما التنشئة الروحية التهذيبية فقد كانت: بأن نشأت فى بيت العبادة، وإن كان الكافل لها نبيا من الأنبياء، وأما الثانى فبالرزق المستمر كما أشرنا، وقد ذكرهما الله تعالى بقوله:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾:

﴿وَكَفَّلَهَا﴾: أى ضمها إلى زكريا؛ لأن الكفالة فى أصل معناها الضم، وقد ضمها إليه لتكون فى رعايته، وكان ذلك بإرادة الله، ونتيجة اقتراع كان بينهم؛ ذلك بأن الصالحين من قومها تنازعوا فيمن يكفلها، فاقترعوا فكانت القرعة لنبى الله زكريا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران] فكانت تلك القديسة الطاهرة فى رعاية نبى، وتربت فى مهد النبوة، لتكون هى وابنها آية للعالمين.

وأما كفالة الله تعالى لرزقها، فقد أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ المحراب هو مقدم بيت العبادة، فكأنها كانت فى عكوف دائم بالمسجد منذ غرارة الصبا، بل كان ذلك وهى بالمهد، والرزق كان يجىء من حيث لا يحتسب كافلها، إما من هبات توهب لها، أو من فيوض الله تعالى عليها، وهو خالق كل شىء، فمن خلق من العدم كل هذه الموجودات قادر على أن يؤتى لهذه المصطفاة رزقا جاريا لا يعلمه إلا هو، وهو على كل شىء قدير. ومن أنكر ذلك، فقد أنكر علم الغيب، وهذا التخريج الأخير هو ما نراه حقا؛ ولذا عجب زكريا منه، فقال سبحانه حاكيا عنه:

كلمات تاليا إهداء بحثي إلى أستاذي العزيز ومن يدين
له بالفضل والعرفان والجميل :-

أيا من له بالعلم قدر من المجد
عليك سلام والسلام من الود
سموت فلم أذهب إليك وكيف لي
بأن أرتقي يوماً إلى جنة الخلد


محمد أبو زهرة
الإمام الجليل
الإمام الشيخ محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، فقد أثرى المكتبة العربية بموسوعته الإسلامية الشاملة، التى كان ختامها ذلك التفسير العصرى للقرآن الكريم.
ولم يكن - رحمه الله - فى